

المسار بورت

تأليف

المرعية

الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٤٧

مقدمة

في أحلك ساعات الإنسان ، عند ما يحس بأن الدنيا قد تنكرت له ، وأن التوفيق قد انصرف عنه ، وأن حسن الرأي قد استغلق عليه ، وأن التدبير قد استبهم وأشكل ، وأن الأمر قد تعسر وتعذر ،

في مثل هذه العشوة الداجية ، وهذه الغمة الضالة قد يلمع بصيص من الأمل كالنجمة الحائرة في ليلة مكفهرة عابسة ، يستهدي بها ذلك الذي فقد الرجاء ، فينكشف لبصيرته ما اشتبه عليه ، ويبين ما اختلط ويسفر ما التبس ، فيمتليء قلبه بالإيمان ؛ وتعصف العزيمة الماضية بين أركان صدره فتدفعه إلى العمل والجهاد ، فإذا بالدنيا المدبرة عنه ، قد أقبلت عليه من جديد ، في اللحظة التي اعتقد فيها بأن القضاء قد حُم وأن الأمر قد غم ..

وصحائف التاريخ مليئة بأخبار هؤلاء الأبطال الذين قهروا اليأس وتغلبوا عليه ، وليس أروع من أن يقهر الإنسان ضعف نفسه ، إذ ليس أقوى من معاندة الأيام ومغالبة الأحداث والنوازل

وفي هذا الكتاب سير بعض هؤلاء المجاهدين ، من أرباب التيجان ، ورجال الحرب ، وأصحاب المذاهب ، الذين كاد الفشل أن يعصف بحياتهم حتى تداركتهم عزيمة غلبة وإرادة قوية ماضية ..

وأصحاب الرسائل ورجال الفكر والإصلاح أكثر الناس عرضة لصنوف

الأذى والاضطهاد ، لأن الصراع بين الفرد والجماعة صراع غير متكافئ . ينتهى عادة بتغلب القوة على الحق ، فينتهى كثيراً مصير صاحب الرسالة بالموت ، أما إذا تداركته العناية فقد يرى من حسن الفطنة أن يهرب ويهاجر ، لأن فى استسلامه قضاء على نشر هذه الرسالة .

وسير الأنبياء حافلة بأخبار الهرب والهجرة ، فقد هرب موسى عليه السلام من جور الفراعنة ، وهرب إسماعيل إلى واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، وهاجر محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هرباً من أذى قريش وهم أهله وعشيرته ، فكانت هذه الهجرة مرحلة حاسمة فى تاريخ الإسلام ازدهر بعدها وانتشر .

وحياة الملوك ، والأمراء ، والوزراء ، والفاحين من القواد طافحة بمعائب الأخبار وطريف السير ؛ إذ أن أصحاب السلطان يعيشون حياة ترقب وانتظار ، فالمنافسون يتحينون لهم الفرص ، حتى إذا واتتهم أذكو نار الثورة فإذا بالعروش الوطيدة تميد تحت أصحابها ؛ بل إن حياة هؤلاء الذين كانوا بالأمس مصدر الحياة والموت تصبح فجأة مرهونة بأمر رجل دخيل اغتصب هذا السلطان ، أو أمر جمهرة ثائرة من عامة الشعب لا عقل لها إلا ما توحى به نزوة الساعة ..

وفى مثل هذه الساعات الداجية ، التى يعتقد فيها الإنسان بأن الحياة قد خبا لألأها ، ينزع بعض ذوى الإرادة القوية إلى الهرب والطرق مسدودة ، والعيون مرصودة ، والأمل لا يكاد يضىء موضع الأقدام ، وسبيل الخلاص تضل فيه العقول

والأفهام : فيتحقق لهم ما كان يبدو شكاً ، ويصبح أمراً واقعاً ما كان يحسبونه
حلماً بعيداً . . .

وتاريخ الانقلابات السياسية مرتبط بأخبار الهرب ، فثورة التحرير الانجليزية
مثلاً التي قامت في وجه استبداد الملكية في عام ١٦٤٩ خلدت تاريخ حكايات عجيبة
من حكايات الهرب أشهرها قصة هرب الملك شارل والأمير إدوارد ؛ والثورة
الفرنسية كذلك حافلة بمغامرات الملكيين الهاربين من حكومة الشعب ، وقد ورد
بين صحائف هذا الكتاب قصة هرب الملك لويس نفسه ، كما جاء ذكر هرب
نابليون من منفاه في جزيرة إلبا .

والتاريخ الإسلامي حافل بسير الهاربين ، نظراً لاختلاط الأجناس
والشعوب التي كونت الإمبراطورية الإسلامية التي تدين بولائها لخليفة واحد ؛
وكثرت هذه الأخبار عند سقوط الدولة الأموية وهرب أتباعها من تعقب
العباسيين لهم ، وقد وردت في هذا الكتاب قصة عبد الرحمن الأموي الذي هرب
إلى الأندلس فأسس ملكاً نافس به الخلافة البغدادية ؛ وأخبار هرب الوزراء إبان
العصر العباسي كثيرة : فكان إذا استفحل أمر الوزير ونجح أعداؤه في تنكر
الخليفة له نزع إلى الهرب إلى بعض أطراف البلاد ، وقد يواتيه الحظ في منفاه
فيؤسس إمارة وملكاً .

وقد تهرب الجحافل والجيوش كما يهرب الأفراد ، ومن أروع هذه التواريخ

أخبار هرب « هانيبال » القائد القرطاجنى المنتصر من إيطاليا إلى بلاده عبر جبال الألب ، وكذلك هرب الاسكندر من الهند بعد أن أُنذرتَه الثورة بالقضاء فى تلك البلاد القصية . وهرب نابليون من موسكو بعد خرابها .

وفى تاريخ مصر الحديثة كثير من هذه الأخبار ؛ وأروع هذه السير حكاية هرب المملوك أمين بك من مذبحه الممالك فى القلعة إبان عصر محمد على ، وهرب خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم واختفائه سنين طويلة فى ريف مصر ، وهرب زعيم المصلحين جمال الدين الأفغانى وتاميزه الإمام الشيخ محمد عبده ، أما قصة هرب الزعيم محمد فريد فقد جاء ذكر لها فى هذه الصحائف .

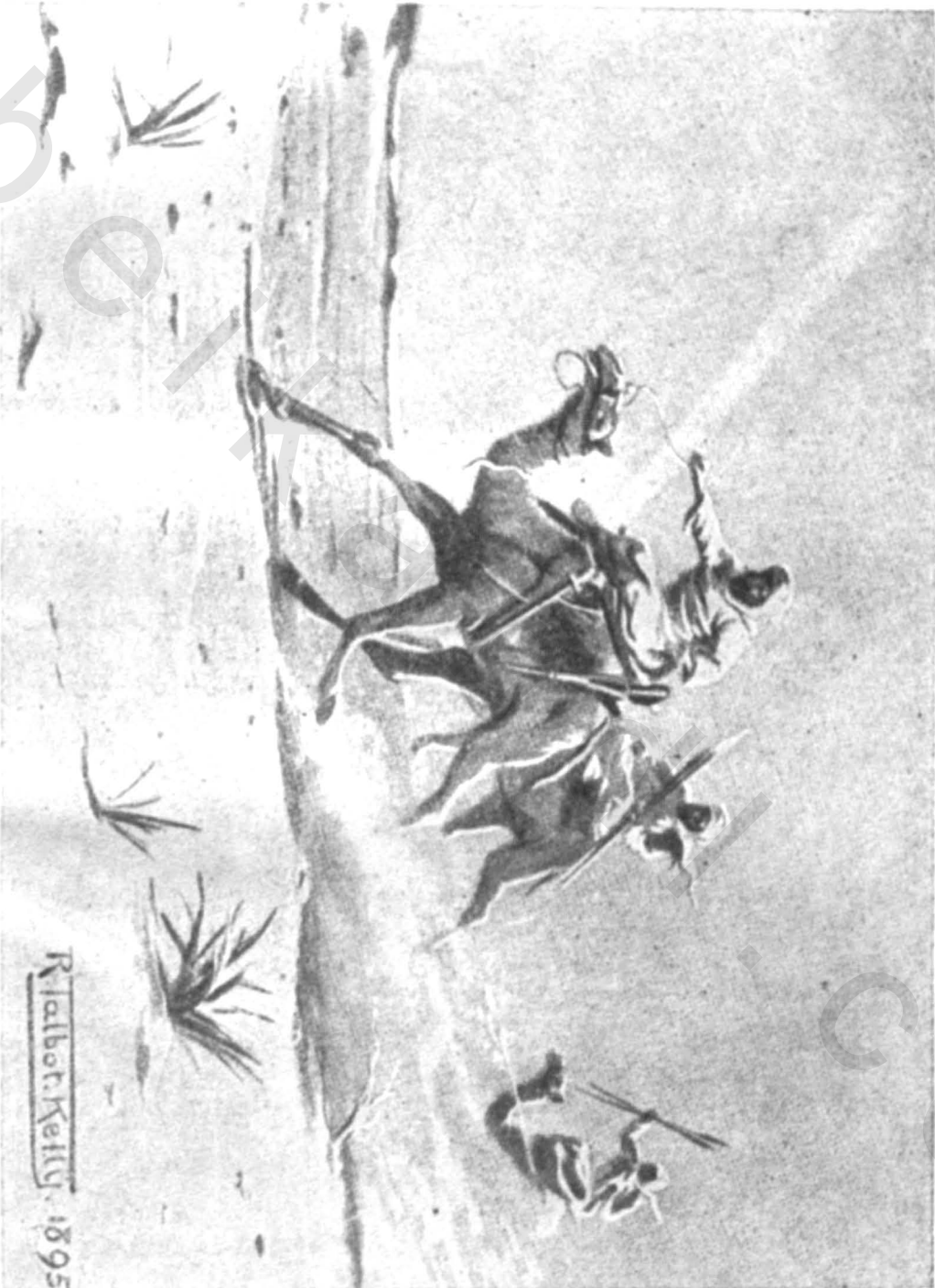
وإبان الحربين العالميتين الأخيرتين ، وُضعت كتب لأخبار هرب الأسرى من معسكرات الاعتقال ، وأعجبها أخبار الأسرى الذين حفروا السرايب تحت جدران السجون ونجحوا فى الهرب ؛ ومن هذه الأخبار الحديثة قصة هرب القائد الفرنسى الجنرال جيرو من ألمانيا ، وهرب موسولينى الزعيم الإيطالى من معتقله على يد طيار ألمانى .

فهذا الكتاب هدية إلى الحائرين المتعثرين الذين يظنون أن بهجة الحياة قد انصرفت عنهم وتنكرت لهم ؛ فما دام فى قلوب الناس بصيص أمل ولو كان خافتا فإن الهرب من هذه المحن النازلة هو طريق الخلاص .

فهرس

الصفحة

٩	هرب فأقام عرشاً « عبد الرحمن الأموى »
٢٥	فى زى النساء « من تاريخ الثورة الإنجليزية »
٣٩	هرب ففقد عرشاً « لويس السادس عشر »
٥٩	الإمبراطور يعوّد « نابليون فى الباء »
٧٧	سباق الحديد « من تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية »
٩٣	أسير الدراويش « من تاريخ الثورة المهدية »
١٠٩	عودة الأسير « من ذكريات الحرب العظمى »
١٢٩	هرب من الوطن « محمد فريد »



R. Lalbot. Kelly. 1895

أسير الدراويش

القطر صفحة ٩٣



مهرب
فانام عرشا

في

قرية نائية على شاطئ الفرات الأعلى ، وفي بيت منعزل

بعيد عن جلبه الناس، وفي حجرة لا يكاد ينفذ إليها نور الضحى،

جلس فتى عربى فى العشرين من عمره وقد عصب عينيه بخرقه سوداء، وراح

يمسح هاتين العينين الرمدين الفينة بعد الفينة بمنديل فى يده .

ولم يكن الرمد وحده هو الذى ساق هذا الفتى إلى العزلة ودفعه لأن

يتوارى عن ضوء النهار الباهر ، ولم يكن ذلك الفتى ممن يلزمهم المرض قعور

اليوت ، ولم يكن ذلك الفتى بالخامل المغمور كبعض أهل هذه القرية المستوحشة

على ضفاف الفرات الأعلى ، لم يكن الفتى أحد هؤلاء ..

كان هذا الفتى غريباً نازح الديار، نزل هذه القرية منذ أيام ، جاءها متوارياً

عن عيون أعدائه الذين تعقبوا أهل بيته تقتيلاً وتنكيلاً ؛ فراحوا بعد ذلك يبحثون

عن الشريد الطريد وعن الفتى الغض وعن الطفل الرضيع ليكون نصيبه

نصيب آبائه ، حتى يأمنوا نغمته إذا استوى على عوده واكتملت رجولته .

كان ذلك فى عام ٧٥٥ (١٣٧ هـ) وقد استولى العباسيون على دست الخلافة

الإسلامية، بعد أن هزموا آخر خلفاء بنى أمية عند «الزاب» فى أعلى الفرات، حيث

تجرى حوادث هذه القصة، وتعقبوه وأهله بالقتل وفتكوا بأبناء هذا البيت العريق

ولم يستبقوا صبياً أو وليداً ، ولم يتورع أتباعهم عن استخدام الحيلة لاجتذاب

الهاربين من هؤلاء المنكودين إلى شرك أعدت لهم ، فأعلنوا أمانا كاذبا لمن يقدم الطاعة إلى بيت الخلافة الجديد ، حتى إذا وقع المغرورون في الفخاخ التي نصبت لهم كان مصيرهم التقتيل والتمثيل .

كان هذا الفتى أرمدا العين ، هذا الغريب الذي جاء مستخفيا في هذه القرية القصية، الأمير عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك ، وقد خرج فيمن خرج من بقية أهل بيته إلى أطراف البلاد النائية حتى يضيع مطارده آثاره ويفتروا عن تعقبه ، بعد أن واتاه الحظ فنجوا من الوقوع في الشبكة التي نصبت له على يد صالح بن علي .

لم يطل مقام عبد الرحمن في قعر ذلك البيت حتى سمع صراخ ولده ، وهو طفل ابن أربع سنين ، وكان الطفل يلعب في الطريق مع أنداده من صغار القرية وهم يجهلون عنه إلا أنه ابن هذا الغريب الذي نزل قريتهم ؛ ثم ان الطفل اندفع إلى الحجرة المظلمة حيث كان أبوه على حاله من مداواة عينيه الرمدتين ، وألقى بنفسه في حجره وهو لا ينفك عن العويل ، حتى إذا أنس إلى أبيه راح يصف له بلسان الأطفال هرج الناس في الطريق وهربهم إلى البيوت فزعا من الجنود الذين دهموهم على غرة ؛ وراح الأب يربت على وجه صغيره ويعبث بضفيرة شعره ويسرى عنه حتى عاد الطفل إلى ما كان عليه من مرح .

ولكن عبد الرحمن لم يطمئن له بال ولم يهدأ له خاطر ، وقد أثارت في نفسه

حكاية الطفل الوسوس والمخاوف ، إذ علمته التجارب الحذر والتربص ؛ فأعداؤه
مازالوا يجدون في أثره لم ينتهم فشل ؛ وأن اختفائه قد تقضحه ثرثرة عبد أحق أو
تهمة طفل برىء ، ثم تذكر عبد الرحمن ما حدث له منذ أيام فحمد الله الذى
نجاه من حيث لم يحتسب

كان ذلك فى قرية من قرى سورية الشمالية ، وكانت رسل الخلافة العباسية
تجوب المدائن تدعو بنى أمية إلى تقديم الطاعة إلى أمير المؤمنين ، الذى وعدهم
أمانا ما أسرع أن ظهر أنه مكذوب . وكان عم الخليفة صالح بن على قد أوكل
إليه أمر تقصى أخبار عبد الرحمن لما عرف عنه من جرأة اشتهر بها وحزم ومضاء
عزيمة ؛ أرسل صالح عيونه وبث جواسيسه يطرقون الأبواب ويتنقلون بين
مضارب البادية وهم ينشرون هذا الأمان الكاذب حتى يصل خبره إلى عبد الرحمن
واخوته وهم فى خفيهم .

ضرب صالح موعدا للقاء الأمويين فلما حل ذلك اليوم توافد الأمويون على
معسكر صالح وقد صدقوا ما روته الرسل وأعلنه المنادون ؛ وكان الأمير عبد الرحمن
قد خرج فى ذلك النهار للصيد وحدث أن عوقه عائق عن أن يعود إلى القرية
التي كان أهله يستخفون بها ؛ وكان أخوه يحيى على شاكلته حذراً وشكا فى
تصديق أمان العباسيين ، لهذا رأى من الحيلة أن يرسل بعض أتباعه إلى معسكر
صالح ليرى بعينه كيف جرى استقبال وفود بنى أمية ، فوصل الرسول فى

الساعة التي نصبت فيها الشباك لأولئك المنكودين ، فلم يكذ يتكامل جمعهم حتى أحاطت بهم الجند وطاحت برؤوسهم فلم ينبج منهم واحد ، ثم انطلق الجنود بعد هذه الوقعة الدامية إلى القرى المجاورة يفتشون عن فل بنى أمية ، فلحقوا بالأمير يحيى أخى عبد الرحمن وقضوا عليه بضربة سيف .

حدث كل هذا وعبد الرحمن فى رحلة صيده فى بعض الفلوات ، فلما كان فى طريق عودته سمع أخبار الفتك بأهله وأخيه ، وعرف أن مطارديه يجدون فى أثره ويبحثون عن مكمنه ، فزاد ذلك من حذره ، فقرر رأيه على الرحيل إلى بعض أطراف البلاد القصية . فلما أمسى المساء دخل داره خفية وأمر أهله بالانطلاق فى التو والساعة ، وكان فيهم ولده وهو ابن أربعة وأخوه الأصغر وهو فتى فى الثالثة عشرة ثم أخته ؛ وهكذا خرجت هذه البقية الباقية من بيت الخلافة الأموية تحت جنح الظلام يطلبون الأمان فى قرية مجهولة منكورة على ضفاف الفرات الأعلى ، حيث رأينا الأمير عبد الرحمن فى محبسه المظلم وقد فزع إليه وليده يطلب الحماية ...

تذكر عبد الرحمن ماجرى له بالأمس وتذكر الفتك بأخيه يحيى ، وأيقن أن القوم ما فتئوا جادين فى السعى وراءه ، وأنه أصبح غايتهم وطلبتهم ، ولا منجاة من ذلك إلا بالهرب ، فلم تعد من أبواب تفتح فى وجهه ولا من أنصار يعتز بهم ويعتمد عليهم ؛ ولم تعد بادية الشام ولا فلوات الجزيرة ملجأ أمينا ؛ إذ عيون

العباسيين له بالمرصاد وجواسيسهم منتشرة فى كل مكان ، فلم يبق من سبيل إلا النزوح إلى أقصى أرباض الدولة التى لاتصل إليها شباك السفاح .

انتصب عبد الرحمن على قدميه وطفله مافىء متعلقا به وقد أشله الفرع ، وسار إلى الباب ووقف على عتبه وقد بهرت عينه المريضة أشعة الشمس ، فرأى ماأحال شكه يقينا إذ كانت جنود بنى العباس قد أحاطت فعلا بالقرية وراحت تفتش عن مخبأه ، إذ تقات إليهم جواسيسهم خبر استخفائه فى هذا المكان ؛ ولم يطل به الوقوف طويلا حتى رأى أخاه الأصغر يقبل عليه وهو يصيح به يدعو للهرب والنجاة بنفسه وهو منهوك الجسم علاه البهر من شدة الجرى ، وقد سمع بأذنيه أن الجنود ما هبطت هذه القرية إلا للبحث عنه وليس لهم من طلبة سواه .

فلما تيقن عبد الرحمن من أن الشبكة قد نصبت له من جديد أسرع إلى البيت وأوضح جلية الأمر إلى أخته وذكر لها المكان الذى يقصده وأمر عبده بدرأ أن يلحق به ؛ ولم يكد يتم حديثه حتى سمع وقع سنايك الخيل وهى تقترب من البيت فلم يتمهل بل أسرع إلى الباب وأخوه الأصغر فى أعقابه فما ابتعد قليلا حتى كانت الجند قد أحاطت بالبيت فلم تجد له أثرا . أما عبد الرحمن فتوجه إلى مكان بشط الفرات وأتى رجلا يعرفه وكلفه بشراء دواب تحمله وأهله لرحلة طويلة ، ولكن سرعان مانى الخبر إلى بعض عيون الخليفة ، فلم يعض طويل حتى كانت الخيل تطوق القرية ، وكاد عبد الرحمن وأخوه أن يقعوا فى الفخ الجديد

لولا ما كان عليه الأمير من سرعة بديهية وقوة عزيمة لاتدع مجالا عنده للتردد
إذا نزل به خطب مفاجيء...

كان البيت الذى اختفى فيه عبدالرحمن على غير بعيد من شاطئ دجلة، لاتفصله
عنه إلا غوطة تكسوها الحشائش البرية، فاندفع الأمير نحوها وسار متلصصا
لا يتبعه إلا أخوه وكان وقع أقدام الخيل تقترب نحوهما وصياح المطاردين يرن
فى آذانهما، حتى إذا قاربا الماء تبين الجنود أن الصيد قد أفلت من عشه فاستداروا نحو
الفرات، فلم يجد عبدالرحمن وسيلة للنجاة إلا أن يلقي بنفسه فى الماء، فلما
رأى الصبي ذلك لم يتمالك نفسه من أن يقتفى أثر أخيه فوثب من فوره إلى النهر.
كان عبدالرحمن سباحا ماهرا كما كان فارسا لا يشق له غبار، فامتطى ظهر
الماء كما يمتطى الفارس صهوة جواده وراحت ذراعه تشقان له طريقا فيه. وما أن
ابتعدا عن الشط حتى كان المطاردون فوق رأسيهما ولكن أحدا منهم لم يجرؤ
على اقتحام هذا الباب الصاخب؛ فزعوا إلى الحيلة وصاحوا بالطريدين يعرضون
عليهما الأمان، ولكن عبدالرحمن لم يكن بالغر الأبله الذى يستمع إلى مثل هذا
الدعاء المكذوب، فصاح بأخيه يستحثه ويشجعه، والفتى يجاهد التيار جهادا حتى
كادت تكل ذراعه، فأصبح نهبا موزع القاب بين الرغبة فى الفرار واللاحاق بأخيه
وبين الخوف من الفرق، حتى تغلبت نزعة البقاء على الحياة، ففتر ذلك من عزمه
وأخذت تستهويه كلمات الأمان المكذوب فسرعان ما استجاب لها فانكفا يطاب
الشاطئ...

أما عبد الرحمن فتولاه الأسى عندما رأى أخاه يرتقى في أحضان مطارديه ، ولكنه لم يترك الحزن يفت في عضده بل لعل ذلك حفزه على مضاعفة المجهود فراح يضرب الماء بذراعيه القويتين كالذى أعماه الغضب وأصمه الخوف وهو مع ذلك لم يفتأ يحذر أخاه تارة ويستحثه على طاب الفرار أخرى ولكن الموج حال بينهما كما حال الموج بين نوح وابنه فلم يستمع الفتى لصوت العقل فكان من الهالكين .

ولعل المطاردين اكتفوا بأحد الأخوين ، لأن بعضهم كان قد استعد للوثوب إلى النهر فمنعه أصحابه عن اللاحاق بعبد الرحمن اكتفاء بأخيه الأصغر . أما الأمير فراح يسبح كالحوت المجروح لا يلوى على شئ حتى وصل إلى الضفة الأخرى من الفرات ؛ وما أن نظر خلفه حتى رأى أخاه الصبي وقد أحاطت به الفرسان ، ولم يستمهلوه طويلا حتى طاحوا بعنقه ، وحمل قائدهم رأسه على سن رمحه وراح يلوح به في الفضاء تلويح المنتصر الظافر .

لقد كان هذا القدر السافر والفتك بفتى لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره مما قوى عزيمة عبد الرحمن على مواصلة الفرار فلم يدع لنفسه مجالا للتردد أو تقليب الرأي من جديد بل تسلطت عليه فكرة واحدة هي الهرب إلى حيث لا تمتد إليه يد ساطة الخلفاء العباسية .

قضى عبد الرحمن نهاره مندسا بين الأعشاب البرية مفتوح العين كالشلب

حذراً من المفاجأة ، حتى وثق من أن مطارديه يؤسوا من اقتفاء أثره . فلما جن الليل راح يتحسس طريقه وقد علت جسمه قشعريرة من فعل الماء الذي بل ملابسه ونفذ إلى جلده ، ولكن رغبته في الفرار ملأت صدره حرارة فلم يشعر بالتعب ولم يحس بالجوع ، ولم يعد يشغل باله شاغل سوى الخلاص بنفسه .

مشى عبد الرحمن إلى بادية الشام سيرا على الأقدام متزيا بزي الأعراب وقد تجنب المروق في وسط القرى الآهلة حتى لا يكون غرضاً لعيون أنصار العباسيين الذين كانوا يتربصون به الفرص في كل مكان ، وكان لا يجهر بالبذخ والثراء حتى لا يستثير حوله الأقاويل ؛ حتى انتهى به المسير إلى محلة تنزل بها جماعة من الموالين لبني أمية فأكرموا وفادته وقدموا له فرساً تحمله إلى فلسطين ، وهناك وجد خادمه بدرا في انتظاره وفي رفقته مولى من موالى أخته أم الأصبع ، وكانت قد أرسلته خفية الى هذا المكان يحمل صرة بها حلى وجواهر ومبلغ كبير من الذهب ، ليصلح عبد الرحمن من حاله ، وليجد ما يكفي لنفقته حتى يصل الى مكان أمين لا تمتد اليه ذراع الخليفة .

واكن عبد الرحمن لم يكن ليرضى أن يعيش طريدا تنقاذ به البلاد ولا يرضى لنفسه أن يعيش عالة في أكناف القبائل وهدفا للوشاية ، لهذا أجمع رأيه على أن يقيم لنفسه ملكا ويحيط نفسه بعصبة من الأنصار تتكسر حولها نبال أعدائه ، أما الى أين ينتهى به التطواف فقد ترك ذلك للفرصة المواتية .

استتب الأمر للخليفة المنصور وامتدت أطراف الدولة الجديدة الى فارس وخراسان ومصر ، وراح المنصور يبني عاصمة جديدة للخلافة جمع لها مهرة المهندسين والصناع ، فكانت بغداد نخر المدائن العربية ، وكان ذلك إيذانا بعهد سلام ينشر ستوره فوق رقعة الإمبراطورية الإسلامية بعد سني حرب أهلية أشاعت الفرع والقلق في النفوس .

ولكن سلطان الخليفة ما كان ليمتد وراء صحراء مصر العربية ؛ فكانت تونس والجزائر ومراكش والأندلس لاتدين لبغداد إلا بالاسم ، بل كان بعض أمراءها لاتربطهم ببغداد إلا وشائج الدم واللغة والدين وهى قوية تستدر لبان الأخوة ، أما إذا عصفت بها عواصف السياسة فتشعل نار الأحقاد والأحن والحسد ، حتى يصبح أبناء العمومة الواحدة أشد عداً وأكثر امعاناً فى النكاية .

كان على مراكش أمير عربى من أوائك المغامرين الذين أنشأوا ملكهم بحد السيف ، وكان كعبد الرحمن جارت عليه الأحداث فهرب من أسبانيا العربية (الأندلس) الى شمال أفريقية وهناك أقام لنفسه ملكاً جديداً ؛ وكان كعبد الرحمن قرشياً بل كان يحمل مثل اسمه ، كان هذا عبد الرحمن الفهرى ..

وكان الفهرى طموحاً علمته التجارب اساءة الظن بمن يلوذ بهم أو يلوذون به ، وكان البربر شعباً لم يألف بعد الطاعة ، يلوحون بانتقاص إيمانهم إذا بدا لهم خنوع أو ضعف من أميرهم ، ولم يدع لهم الفهرى فرصة للثورة أو التبرم ، بل كانت عيونه

تجوس خلال البادية تنقل اليه مآرى وتسمع .

وفى ذات يوم جاءت الرسل تنبىء الفهرى بأن « أمويا » هبط المغرب ، وقد دلت الدلائل على أنه من أشرف القوم وإن كان قد امتنع عن الإفصاح عن حقيقته إلا للأمير . كان هذا الأموى عبد الرحمن ، انتهى به المطاف الى ساحل المحيط الاطنطى ، إذ لم يجد فى فلسطين ومصر وبرقة وتونس والجزائر ذلك الأمان الذى ينشده ، فلم يزل مجدا فى تغربه حتى وصل الى مرا كش ، دخلها هكذا شريدا نازحا لا يتبعه إلا خادماه ولا يحمل معه إلا فضلة من مال يقضى بها حاجات الحياة الملحة .

لعل الفهرى قد ركب الزهو لالتجاء سليل بيت الخلافة اليه ، فاتخذ من عبد الرحمن داعية لملكه ووسيلة للتأثير على القبائل العربية النازلة فى تلك البلاد ، ولم يكن اكرامه له قياما بواجب مفروض بل اعتزازا بجأهه ، ولكن سرعان ما تغلبت طبيعة الحذر فى نفس الفهرى فوجد فى عبد الرحمن ما جعله يخافه ويخشى جانبه ، إذ أن الأمير الأموى مع ما كان يحيط باسمه من وهج السلطان ، فان دماسه خلقه وسرعة حاضرتة واتساع أفقه قد جعله محط أنظار رؤوس القبائل .

وأولج الفهرى فى ريبته بعبد الرحمن ، ومما وكد لديه تخوفه نبوءة رواها يهودى ممن يتهنون الكهانة ؛ نعم كان ذلك من زمن طويل ، ولكن الأوهام حين تخيم

فوق الرؤوس لا تحتاج إلا للتأفف من الأمور لتخرج منها أخطر النتائج ، وهكذا فعل الفهرى حين استعاد الى ذهنه ما تنبأ به ذلك اليهودى ، من أن قرشيا سوف يملك الأندلس ويصير ملكها فى عقبه ؛ ومن علامات هذا القرشى أنه ذو صنفيرتين وأن اسمه عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن الفهرى يعنى نفسه بتحقيق النبوءة ، فأرسل صنفيرته حتى تنطبق عليه تلك الأوصاف ، ولكنه لما رأى ضيفه «عبد الرحمن» بصنفيرته وعلاماته الأخرى استولى عليه الفزع وانقلب كرمه نقمة حتى عزم على الإيقاع به .

أحس عبد الرحمن بأن ابتسامة القدر بدأت تملو وجهه مضيفه ، وأخذ خادمه ينقلان إليه ما يسمعان من أحاديث الناس ، حتى إذا لم يعد فى المداينة سبيل انطلق عبد الرحمن هائما على وجهه وراح يوغل فى الصحراء بعيداً عن الحواضر التى تصل اليها يد الفهرى ، حتى انتهى إلى مضارب قبيلة زنانة ، وهم من اخواله أجاروه وأخفوه من عين الفهرى ، الذى أجمع رأيه على أن يتخلص من عبد الرحمن بالقتل .

وهكذا عاد الأمير الأموى مرة أخرى لحياة التشرد والتخفى ، فعاش فى صميم البادية حياة شظف لم يألفها من قبل ، ولكن صلابه عوده وبعد همته وطموحه الذى لا تزلزله النوازل لم يدفعه للاستكانة ولم يدع اليأس يسيطر على قلبه ، وهو بطبيعته متفائل يترقب انبلاج الفجر والليل متجهم تتوه فيه الآمال .

رأى عبد الرحمن أن لاسبيل إلى منازلة هذا الخصم الذى لا يقل عنه جرأة ولا يقظة ، لأنه صنع ملكه بذراعيه فهو أحرص من أن يفلت منه زمام أمره ، لهذا تحول عبد الرحمن إلى الأندلس ، ذلك الجزء الجنوبي من أسبانيا حيث وطد العرب سلطانهم وأقاموا لهم فيه دويلات وإمارات ، وكان أعظم هؤلاء الأمراء طولاً «يوسف الفهرى» صاحب قرطبة وهو ابن عم لعبد الرحمن أمير البربر ، ولكنه مع ذلك لم يستتب له الأمر كله بل كانت الأحقاد والخصومات تتنازع القبائل العربية من قریش ومضر ويمن وبربر ، فرأى عبد الرحمن أن يستفيد من هذا النزاع .

لم يكن لهذا الأمير الشريد مال يشتري به الأنصار ، ولم يكن له من عصبة يحتذى بها ولا من خلصاء يفضى اليهم بسرهم اللهم إلا رجل واحد هو خادمه بدر . . . ولم يكن ذلك ليقعد عبد الرحمن عن المضى فى تحقيق أحلامه البعيدة ، فأرسل بدرأ بمفرده الى الأندلس . وقد حمله سيده كتابا الى اثنين من أشياع بنى أمية وكانا أصلا من موالى عثمان بن عفان ، وصف لهما فيه حقيقة حاله وملاحقة الفهرى له ، وذكرهما بما فعله جده هشام حين كان صاحب الأمر بالأندلس وأنه أحق بوراثته ، وأن اعلاء سلطان بنى أمية هو إعلاء لسلطانهم ، وأن توفيقه فيما هو مقدم عليه يفتح لهما الطريق الى مناصب الدولة الجديدة .

عبر بدر البحر ونزل إلى ساحل «البيرة» ، وهناك اجتمع بالرجلين وكانا صاحبا وفاء لبني أمية ، فتدارسا الأمر ووجداه جديراً بالمحاولة وإن كان تحقيقه صعب المال بعيد الإمكان ، ثم تبادلوا السر مع أشياعهم فوجدا من بعضهم سميعا لهذه الدعوة . كما وجدا معارضة ممن هيأت لهم امارة يوسف الفهرى . حظوة عنده ، ولكنهما لم يحزعا ولم يقنطا ، فاكتريا مركبا وأرسلا بدراً في صحبة احد عشر رجلا من أتباعهم بدعوة عبد الرحمن إلى الأندلس ، فلما حطت المركب عند ميناء « سبتة » على مضيق جبل طارق وجدا عبد الرحمن في انتظارهم ، قهلاً وجهه فرحاً وفاضت نفسه أملاً ، وهو لا يدري أن دعوته لم يستجب لها إلا حفنة من الرجال أعجز من أن تقوم على أكتافهم دولة لا يستقيم لها حال إلا بتجريد الجيوش وجمع آلاف الأنصار وبذل المال ، ولكن حب المغامرة وثقة عبد الرحمن بنفسه لم تدعه يتخاذل فيضيع الفرصة مع ثقافتها .

سافر عبد الرحمن إلى الأندلس ونزل على ساحلها الغربي وهناك قابله أشياعه بالترحيب ، وسرعان ما سرى خبر قدوم الأمير الأموي وريث عرش الخلافة الإسلامية ، فأثار في نفوس أولئك المهاجرين حينئذ إلى الماضي الحبيب إلى نفوسهم ، وأهاج روح الولاء إلى بيت الخلافة ، فهرعوا إلى عبد الرحمن واحتفوا عقده ؛ فوجدوه كما اشتهوا عظيماً في خلقه وخلقه ، كيساً أريباً بأساليب الخطاب ، عنكاً صقلته التجارب ، عيوفاً لا تغريه الصغائر ، يابس المكسر لا تحطم

همته المصاعب ، فلما كثر الأشياع والأنصار انتقل عبد الرحمن إلى حصن عند بلدة « طرش » .

* * *

بلغت أخبار عبد الرحمن قرطبة ، وسمع يوسف الفهرى ما جعله يفزع على ملكه من هذا الشريد الطريد فنصحته خلاصاؤه أن يأخذ الأمر بالحيلة والمداينة ، فأرسل إلى عبد الرحمن مرحباً بقدومه وأنفذ إليه الهدايا النفيسة وعرض عليه المصاهرة على شريطة ألا يطالب بأمانة أو سلطان . وكادت هذه الحيلة تعصف بآمال عبد الرحمن وتذرى بها ، إذ فرح أنصاره بهذا العرض السخى وعدّوه نجاحا وتوفيقا . ولكن الأمير الشاب لم يكن يسمي إلى الثراء وجمع المال بل كان همه هم آباءه وأجداده ، أن يقيم ملكا ويخلد مجداً .

قارع عبد الرحمن الحيلة بالحيلة فعمل ما أثار حفيظة أتباع يوسف ، فردوا وفد الفهرى بل أنهم احتجزوا رئيسه ، وكان ذلك بمثابة اعلان الحرب على أمير قرطبة ؛ واستعد الفريقان للقتال ، فلم يكدها تهدياً حدة شتاء ذلك العام وكان قاسيا زمهريرا حتى كان جيش عبد الرحمن ينهب طريقه نهبا صوب الشمال إلى قرطبة .

سار الجيشان بحذاء شاطئ نهر الوادي الكبير ، هذا على جانبه الأيسر ويوسف على شاطئه الأيمن فلما تقابلا الندان كان ماء النهر فاصلا بينهما ، عند ذلك رأى عبد الرحمن أن يسرع إلى قرطبة نفسها ليلاقى خصمه على أبوابها

فلما أحس يوسف بذلك انكفاً من حيث أتى ، وانطلق الجيشان يتسابقان وكان سباقا عجبا .

وهناك على رمال الصحراء الى غربى قرطبة التقى الجيشان فانهزم يوسف وتفرق أشياعه ، وسار عبد الرحمن الى قرطبة ودخلها وانتهى الى قصرها .
وهكذا أصبح الطريد الشريد صاحب ملك ومؤسس دولة زهت على الخلافة العباسية نفسها .



انتهى

الأمر ونصب جورج أمير هانوفر ملكاً على إنجلترا ، ولم يكد

نصرأ أسرة «استيوارت» المعزولة من أشرف اسكوتلندا

ونورثمبرلاند يزحفون جنوباً حتى التقوا بجيوش الملك الجديد عند «برستون»

وهزموا شرهزيمة ، وكان نصيب هؤلاء الأشراف وأكثرهم من الكاثوليك ، أن

وقعوا أسرى في يد الملكيين ، وسيقوا إلى لندن تمهيداً لتقديمهم إلى المحاكمة .

اكتظ برج لندن بهؤلاء المسجونين السياسيين ، وتاريخ هذه القلعة

الحصينة حافل بأخبار الثائرين الذي كان نصيبهم في الغالب فأس الجلاد ،

هذه الفأس التي طاحت من قبل وفي ساحة البرج الوسطى بكثير من

الأمراء والأميرات والنبل ورجال السياسة .

ولم تكن محاكمة هؤلاء النبل مما يشرف القضاء الإنجليزي ، لأنها محاكمة

سياسية أوحث بها العواطف لا الحرص على مبادئ العدالة العامة . وما

زاد الموقف ضعفاً على إبالة ، أن أدخل في روع هؤلاء المتهمين أن الخير في

الاعتراف بجريمتهم ثم عليهم أن يطلبوا بعد ذلك العفو من الملك ، وهم الذين ثاروا

في وجهه بالأمس ؛ وهكذا خرجت المحاكمة من يد القضاء العام إلى ساحة العرش .

أما الملك وصاحب التاج فؤسس أسرة جديدة يريد لها الاستقرار والدوام فكان

من الطبيعي أن ينزع إلى الشدة حتى تكون خاتمة هؤلاء الثائرين عبرة لغيرهم .

ولكن الرأى العام الإنجليزى كان مناهضا لسياسة الانتقام داعيا إلى التسامح مع المتهمين ، حتى بلغ من قوته أن اضطر رئيس الحكومة « ولبول » إلى التراجع فلم يصر على إرسال جميع هؤلاء النبلاء إلى مقصلة الجلاد ، ولم يصدر أمر الملك إلا بإعدام ثلاثة من هؤلاء الثوار ؛ هم « درونت وتر » وهو من أقرباء الأسرة المالكة ، واللوردان « نيشديل » و « كنمور » وهما من زعماء اسكتلندا .

وفى يوم ٢٥ فبراير ١٧١٦ أعدم « درونت وتر » و « كنمور » ، ولما جاء دور « نيشديل » اكتشف الحراس أنه اختفى من سجنه الحسين ما بين العشية والصباح ؛ أما كيف هرب اللورد نيشديل من برج لندن فموضوع هذه القصة .

كانت الكونتس زوجة نيشديل عند القبض على زوجها فى السادسة والعشرين من العمر ، وكانت سيدة تفيض شبابا وجرأة ، ذات جسم مهصور وشعر يميل إلى الحمرة وعينين زرقاوين ؛ وكانت فى مقدمة النبيلات المناصرات للدعوة ضد أسرة هانوفر الجديدة .

جاءت الأنباء بهزيمة زوجها ورفاقه عند « برستون » وهى فى يتيها الريفى فى « نيشديل » من مقاطعات اسكتلندا الوسطى ، فأصبحت واثقة جد الوثوق

من أن زوجها لن ينتظر عفو أو رحمة وأن خاتمة قد اقتربت لا محالة .
ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل ، فلم تضيع ساعة من الوقت بل سارعت
في توجها إلى لندن ، لا يصحبها في رحلتها أحد إلا خادمتها « إيثانز » .

كان اليوم من أيام شهر يناير القارصة البرد ، وقد غمرت الثلوج السهول
واكتسحت الطرقات ، ولكن ذلك لم يفل من عزيمتها ، فأمرت الحوذي
بإعداد عربة أفلتها مع خادمتها الأمينة (التي نشأت في بيتها منذ الصغر فوثقت
بها ومنحتها سرها) فانطلقت العربة حتى وصلت إلى « نيوكاسل » ، وهناك
انتقلت السيدة وخادمتها إلى عربة البريد التي تسير إلى مدينة « يورك » ، ولكنها
لم تبتعد طويلا حتى عثرت الخيل ، وانتشرت الشائعات بين المسافرين بأن
الطرق قد ردمتها الثلوج ، وأصبح السفر عليها ضربا من الجنون ، ولكن ذلك
لم يثن من عزم السيدة التي تفحت السائس مبلغا كبيرا من المال لاكتراء
خيل جديدة ، وهكذا تابعت السيدة رحلتها إلى لندن في جو ثلجي عاصف .

وما أن وصلت « الليدى نيشديل » إلى لندن حتى هرعته إلى بيوت بعض
أشراف اسكتلندا لتستوثق من حقيقة الرواية ، ولكنها لم تسمع إلا ما أضعف
أملها ، وتيقنت من أن كل محاولة للتماس العفو عن زوجها مقضى عليها
بالفشل ، وإذا كانت هنالك وسيلة لتخليص قرينها فليست إلا ان تحطم القضبان
والأقفال الحديدية التي سجن خلفها !

كان أول ما سمعت إليه أن يسمح لها بدخول البرج العتيد ، ولكن « ولبول » رئيس الوزارة الإنجليزية إذ ذاك رفض ملتصقها إلا إذا قبلت أن تشارك زوجها في محبسه حتى النهاية . بيد أنها رفضت هذا العرض لأنها يجب أن تكون حرة طليقة إذا حاولت ان تفعل شيئاً في سبيل خلاص زوجها ، ولم يعض غير قليل حتى نجحت حياتها فوجدت نفسها في غرفة زوجها بعد أن رشت الحراس !

تكشفت حقيقة الموقف أمام عيني ليدي نيشديل ، فالأمل في الهرب من هذا الحصن ضئيل ، فهناك في غرفة زوجها نافذة واحدة مشبكة بالحديد تطل من هذا الارتفاع الشاهق على خندق البرج ، وهو بدوره في حراسة بعض الجنود ، فإذا قدر للورد نيشديل الهرب فلن يكون ذلك إلا من باب الغرفة نفسه ، وهو تحت حراسة قاسية ، بل أن الدرجات الموصلة إلى الغرفة ما كانت في منأى من أعين الرقباء ؛ لهذا كان من السخف أن يلجأ أحد إلى استخدام القوة ، فالخيلة والبراءة هي السلاح الذي قد ينجح في مثل هذه الظروف .

إن أضعف ما في نظام السجون العامل الإنساني ! وكان هذا أشد وضوحاً في سجن حصين كبرج لندن حيث كان احتمال الهرب أمراً مشكوكاً فيه ؛ لذلك اعتمد حاكم البرج على مناعته وشدة مقاومته فزاع إلى الإهمال ، ولم يرع تطبيق

القانون في دقة وعناية ، فكانت زوجات الضباط والحراس وأطفالهم تغدو وتروح في حدائق البرج وطرقاته كما يحلو لهم ، وهذا ما أعطى الفرصة إلى ليدي تشديل .

كانت خطة الهرب تتأخص في أن يتخفى زوجها في زى إمراة ذات قبعة عريضة وضافر مستعارة ، وهكذا يجد طريقه مفتوحا إلى الحرية تحت أعين الحراس وبصرهم ؛ ولكن كيف يتحقق ذلك ؟ عكفت السيدة على دراسة مفردات هذه الخطة فوجدت أن عليها أن تستعين بغيرها من النساء ، فوقع اختيارها على فتاة تدعى « هلتون » وعلى سيدة تدعى « ملز » لها من قامتها المديدة وجسمها الممتلئ ما يجعل التماثل بينها وبين اللورد قريبا إذا استعان في ذلك بمعطف فضفاض وذوائب من الشعر الأحمر ، فضلا عن تلوين حواجب اللورد الغزيرة وتحمير خديه !

ولكن الخطة لم تعجب اللورد « نيشديل » فرفض أن يقوم بدوره ، إذ هي في نظره خطة صبيانية سخيفة لا تليق به ، إذ كيف من الجائز أن يقلد جندي قاسى الملامح عسكري الخطوات إمراة ما من النساء في زيهِ ومشيته فخير له أن يعمل على شق طريقه بالسيف لا بتلوين الحدود وتحمير الوجنات مما يجعل اسمه اضحوكة الأضحيك بين المتحدثين والرواة . وخير لزوجته أن تسمى إلى الملك لتلتبس العفو عنه علما تنجح فيما فشلت فيه من قبل .



هكذا هرب اللورد نيشديل من برج لندن في زي امرأة ..

وأبدت ليدى نيشديل موافقة ، ولكنها كانت واثقة تمام الوثوق من أن الاعتماد على عفو الملك كالاغتماد على ساق من القش ، بعد أن أصدر الملك أمراً بالألا يرفع إليه التماس ما من اللورد نيشديل بالذات ، فباءت لذلك كل محاولة للوساطة مع سيدات القصر بالفشل .

أجمعت السيدة رأيها على أن ترى الملك وجها لوجه ، لهذا ارتدت الملابس السوداء وذهبت إلى القصر وفي صحبتها الآنسة هاتون التي سبق لها أن رأت الملك . وصلت الشريفة الاسكتلندية إلى القصر حتى انتهت إلى الحجرة التي تفصل قاعة الاستقبال الكبرى عن غرفة الملك الخاصة ، ولما ظهر الملك أسرع « ليدى نيشديل » وألقت بنفسها على أقدامه مولولة : « إننى الكونتيس نيشديل السيئة الحظ ! » فما كان من الملك عند ما عرف حقيقتها إلا أن تراجع إلى الورااء مبهورا ورفض أن ينظر إلى الالتماس الذى رفعته إليه ؛ ولكنها مع ذلك لم تقطع الأمل بل أمسكت بتلابيب معطفه وراحت تبثه شكواها باللغة الفرنسية لغة البلاط الانجليزى إذ ذاك ، فأثار ذلك غضب الملك وهياجه ، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص منها إذ أنها ارتضت لنفسها أن يجرها جرا على الأرض حتى وصل إلى قاعة الاستقبال وهى ممسكة بتلابيبه وهناك عملت الحاشية على تحرير الملك الثائر من قبضتها . وهكذا فشلت فى مهمتها . رأى لورد « نيشديل » أن يتجه إلى مجلس اللوردات لعله يجد فيه من

يشد أزره ، فقامت زوجه بهذا الدور وراحت تعرض قضيته على اللوردات واحداً واحداً ، ولكنها فشلت المرة الثانية ، نعم إن لورد «ييمبروك» وهو من اقرباء نيشديل تكلم في صالحه ، ولكن اليأس تسلط عليه منذ أن فتح فمه للدفاع عنه ، وهكذا سد في وجه نيشديل آخر طريق للنجاة ...

ولما لم تبق من وسيلة لتخليص زوجها ، لم تجد ليدي نيشديل إلا أن ترداد إيماناً بالخطئة التي وضعتها للهرب فعملت على تنفيذها فوراً . إنطلقت إلى البرج وهناك أشاعت بين الجنود والحراس أن الملتمس الذي قدمته إلى مجلس اللوردات قد قبل وأن جلالة الملك أبدى ارتياحا للنظر فيه . فنهاها الحراس لنجاح مسعاها ، (فقد أصبحت من كثرة تردادها على البرج شخصية معروفة محبوبة بين الحراس . وزاد في ذلك ما كانت تقدمه لهم من هدايا ومن مال) ولكنها لم تخف الحقيقة عن زوجها ؛ إن ساعة العمل قد أزفت فلم يبق للورد من مهلة إلا يومان ، ففي الغد وهو يوم الجمعة سيصدر الملك حكمه النهائي ، فإذا رفض الالتماس وهو أمر مؤكد فان المتهم سيرسل إلى المطع في يوم السبت .

ولما كان صباح يوم الجمعة أوضحت الليدي نيشديل تفصيل هذه الخطئة للسيدة «ملز» التي سيقوم اللورد بتمثيلها ؛ وعندما أمسى المساء انضمت إليهما الآنسة «هلتون» على ان تستقل السيدات الثلاث والخادمة «ايفانز» عربة إلى البرج

وهناك تنتظر الخادمة على بابه ، أما ثلاثهن فيرتدين الدرجات أمام عيون الحراس إلى غرفة اللورد .

كان على الأنسة «هلتون» وهي رفيعة القدر أن ترتدي ثوبين واحد لها وآخر للسيدة ملز حتى إذا دخلت غرفة اللورد تنزع عنها الثوب الخارجي وتسرع بالخروج من حيث أتت ؛ عند ذلك يحىء دور السيدة ملز التي ترتدي ثوبا يصلح للورد ، وكان عليها أن تمثل دور المنتحبة الباكية فتغطي وجهها بمنديل حتى لا يلمح وجهها أحد من الواقفين ، حتى إذا أبدلت ملابسها وارتدت الثوب الذى تركته الأنسة هلتون فى الغرفة من قبل ، تعود من حيث جاءت على أنها تلك الأنسة . فاذا تم ذلك يأتى دور اللورد نفسه الذى يخرج على أنه السيدة « ملز » الباكية المنتحبة . والخطوة كما ترى تعتمد على تشويش أذهان الحراس بحيث لا يدركون من الذى خرج أولا والذى خرج أخيرا من أولئك الزائرات .

فاما أعدت اللادى: نيشديل العدة ، استقلت عربة فى صحبة السيدتين والخادمة إلى البرج ، وكانت فى خلال ذلك كثيرة الكلام والملاحظة حتى لا يسود رؤوس هؤلاء المتآمرات جو من الوجوم . وما أن وصلت إلى البرج حتى وجدت جمعا من السيدات ينتظرن رؤيتها وهى فى طريقها إلى غرفة زوجها ، لأن كثيرا منهن لم يكن يعبان بما تدعيه الليدى من براءة زوجها ،

بل كن يعتقدن أن حكم الإعدام سينفذ عليه في الغد ، فكان وجود هذا الجمع الحافل من النسوة مما ساعد على زيادة تحبط الحراس .

قادت الليدى نيثديل الانسة هلتون إلى غرفة زوجها وهناك نزع الفتاة الثوب الإضافى عنها، وخرجت بصحبة الليدى حتى رأس الدرج حيث طلبت منها بصوت مسموع أن ترسل إليها الخادمة على عجل ؛ عند ذلك جاء دور السيدة ميلز ، فارتقت السلم وهى تنهه باكية فجيتها الكونتيس وقادتها إلى غرفة زوجها وهناك مسحت دموعها وأبدلت ملابسها ودعتها تخرج ثانية وهى تنادىها باسم الانسة هلتون طالبة منها أن تدعو الخادمة فى الحال ، فلما اخترقت السيدة جماعة النساء المتفرجات دخل فى روعهن أنها الانسة هلتون ، ومعنى ذلك أن السيدة ملز ما زالت فى غرفة اللورد .

عند ذلك حات الساعة الفاصلة ، وأصبح من المحتمل كثيراً أن تنجح المؤامرة إذ اختلطت حقيقة هؤلاء الزائرات على الحراس ؛ فبذلك يتسنى للورد أن يخرج متخفياً فى زى السيدة ملز التى سبق أن خرجت فى زى الانسة هلتون وهى التى مرقت خلسة دون أن يتنبه إليها أحد . . .

أخذت العشيّة تخيم على جوانب البرج ، وكان على اللورد أن يغادر غرفته فى تلك اللحظة قبل أن تنفضح حقيقته فى ضوء المشاعل التى تعد بعد قليل . اسرعت الكونتيس وألبست زوجها ما كانت ترتديه من ملابس داخلية فضفاضة ، ولما لم

يكن لديه وقت لحلاقة وجهه برقمت وجهه بحيث لا يبدو منه سوى عيناه ، ثم صبغت خديه والصقت خصلة من الشعر جعلتها تتدلى من جبينه والقت عليه العباءة التي جاءت بها السيدة ملز ، ثم قادت اللورد إلى رأس السلم وهي تدعوه باسم السيدة « ماز » طالبة منها أن تسرع إلى منزلها لتدعو خادماتها في التو لأنها في حاجة إليها .

سارعت الكونتس خلف زوجها وكأنها نسند السيدة ملز المتهالكة إعياء وجزعا ، وبذلك أخفت مشية اللورد التي ما كانت لتخفى حقيقتها عن أعين الناظرين لولا أن موقف الوداع هذا قد أجم ألسن الحراس وأشاع مسحة من الكآبة على وجوه الواقفين ، حتى أن أحد الحراس فتح الباب بنفسه وترك اللورد وزوجته ينطلقان إلى خارج الأسوار ، وهناك كانت الخادمة « ايفانز » تنتظر سيدها فانطلقت بهما العربة إلى منزل في حي « درورى لين » حيث خلع اللورد ملابسه وارتدى سترة خادم من خدم سفير البندقية ، ومن ثم اندفع إلى شاطئ المانش .

أما الكونتس الجريئة فقد رجعت إلى غرفة السجن خوفا من أن يكتشف أحد خلو الغرفة ، فارتجت الباب من خلفها بشدة ، وراحت تتكلم بصوت مسموع وكأنها تحدث زوجها ، وطفقت تسير في الغرفة ذهابا وإيابا بخطى ثقيلة كأنها خطوات السجين الحائر . ثم أنها فتحت الباب وأخذت تودع زوجها الموهوم بصوت يسمعه الحراس حتى إذا اتجهت إلى رأس السلم أغلقت الباب من ورائها ،

وأخذت تشكو إلى الواقفين إهمال خادمتها ، وذكرت للحراس أنها ذاهبة إلى البيت لتقضى حاجة عاجلة على أن تعود في توها إذا وجدت أبواب البرج مفتوحة حتى تلك الساعة ، وإلا فإنها تؤجل عودتها إلى الصباح الباكر لتحمل إلى زوجها أخبار أسارة . ثم إنها رجعت الحراس أن يتركوا اللورد وشأنه لأنه منهصرف إلى صلاته ؛ فلا يرسلوا إلى غرفته مصباحا حتى يطالب ذلك بنفسه .

وعند ما مرت الكونتيس بحجرة الحراس أقرأوها التحية ونفوسهم تفيض حمرة عليها .

وفي صباح تلك الليلة وصل اللورد إلى دوفر حيث وجد مركبا في انتظاره فأقلته إلى فرنسا ومن ثم إلى روما حيث لحقت به زوجته بعد قليل .

قضت الليدى نيشديل ليلة مؤرقة لم يلمس جفونها النوم ، فقد كانت في كل ساعة من ساعات الليل الطويلة تنتظر مفاجأة ليست في حسابها ، فقد يكتشف الحرس هرب اللورد فترسل الحكومة من يتعقبه قبل أن يصل إلى دوفر ؛ وقد تنتقم « وابلول » لهرب زوجها فتصبح منذ الغد أسيرة سجين في البرج نفسه .

وعندما أصبح الصباح كانت أخبار هرب لورد نيشديل قد انتشرت في كل مكان ؛ فلم تر الليدى نيشديل وسيلة الا أن تلجأ إلى القصر وتطلب المشول بين يدي الملك الثائر ، وقد نجحت هذه المرة فيما فشلت فيه من قبل .

لقد قابل الرأى العام الإنجليزى مؤامرة الكونتس بشىء كثير من الإعجاب
حتى أن الحكومة اضطرت لتبديل سياستها حيال المتآمرين . أما الملك فسرعان
ما بردت سورة غضبه وراح يضحك ويقول : إن رجلا فى ظروف اللورد نيتشديل
ما كان ليفعل غير ما فعل ..



فقد عرشا هرب



يوم صائف من أيام شهر يونية عام ١٧٩١ أخذت شوارع باريس تبرد حرارتها ، وأخذت الطرقات تقفر ، وبدأت العربات تكرر راجعة بأصحابها إلى البيوت .

وفي أحد أركان شارع « ليشيل » حيث يقطعه شارع « سنت أونوريه » ، وفي المكان الذي يحتله فندق « نورمانديا » في الوقت الحاضر ، وقفت عربية من العربات الشائعة في ذلك العصر تنتظر أمام دكان صانع سروج يدعى رونسان ، وكان يخال للناظر أن سائقها ينتظر قبض أجرته من بعض زبائنه ، ولكن رونسان كان في هذه الساعة قد أغلق دكانه وآوى إلى فراشه ؛ أما سائق العربية فكان يرتدى الملابس المعروفة بين أبناء مهنته ، وكان يقطع الوقت بنشق السعوط والتندر مع السائرين . دقت الساعة الحادية عشرة ، وازدادت الطرق افقاراً وظلاماً ولكن العربية ما فتئت ماثلة في مكانها . . وفي تلك اللحظة برزت من ناحية قصر التولري سيدة مبرقة تصحب طفلين مقنعين وما أن أوما إليها السائق حتى اتخذت مكانها في العربية ؛ وتبعها سيدة مقنعة أخرى ، ثم جاء على أعقابها رجل بدين تتدلى ذوائب شعره من قبعة مستديرة ، فلما حازى حراس القصر انحنى وكأنه يصلح حذاءه فبذلك أخفى وجهه . ومع أن العربية قد غصت براكبيها بيد أنها وقفت حيث هي لا ترمع رحيلا .

كانت هذه الجماعة الصغيرة من النبلاء ومن حملة الألقاب ؛ أما السائق

فالكونت «الكس فرسين» وهو نبيل سويدي وضع نفسه في خدمة فرنسا ،
أما السيدة المقنعة الأولى «فالدوقة دي تورزيل» مربية أبناء الملك ، ولو أنها
كانت تحمل اسما روسيا على جواز سفرها هو «البارونة دي كورف» ، أما
السيدة الثانية فدام اليزابث أخت الملك ، أما الصغار فالأولى الأميرة
روايال التي أصبحت فيما بعد الدوقة «أنجوليم» ، وكان الثاني ولي العهد ؛ أما
الرجل البدين ذو القبعة المستديرة فلم يكن إلا الملك لويس السادس عشر
نفسه ! وراحت العربدة تنتظر في مكانها ترتقب وصول الملكة .

مرت شهور والعائلة المالكة سجنينة في قصر التولري ، بينما كانت
الثورة يستفحل أمرها ويتفاقم أورها ، وكان التولري سجننا حقيقيا ، إذ لم
يكن يسمح لتزلأئه بالخروج منه حتى ولا لزيارة «سان كلو» إبان عيد الفصح
كما جرت العادة . وكان الملك كالريشة في مهب الريح لا يستقر على رأى ؛
لقد مات «ميرابو» الذي كان في طوقه أن يحمى عرش فرنسا من الانهيار ،
فلم يبق الآن إلا العمل على إنقاذ العائلة المالكة بعد أن أخذت السحب
القائمة تتجمع فوق رؤوسها .

أما الملكة «مارى انطوانيت» التي قال عنها ميرابو «إنها الرجل الوحيد
الذى يقف إلى جانب الملك» فقد قرأها على الفرار من سجنها والهرب
من باريس أو من فرنسا بأسرها إلى حيث أصدقاؤها فيما وراء الحدود ،

بعد أن انضم الحرس الوطنى إلى صفوف رجال الثورة ، ولكن جيش «بوييه» الذى يمسك على الحدود الشرقية والذى يتكون أساسا من الجنود الألمانية المرتزقة مازال على إخلاصه ؛ وبوييه من أنصار الملكية الأشداء .

وضع الكونت فيرسن خطة الهرب ، ومن أجل تنفيذ هذه الخطة هبط دوق «دى شوازيل» بباريس ، ومن أجل هذا صنعت عربة خاصة لهذه الرحلة ، عربة ضخمة من الخشب المقطى بالجلد كسيت بالمخمل الأبيض وكان يجرها احد عشر جوادا ، وكانت العربة فى تلك الساعة تنتظر عند البوابة الشرقية لباريس ، بينما كان فيرسن بعربته الصغيرة ينتظر فى شارع ليشيل ليحمل هؤلاء الهاربين الى حيث العربة الكبرى .

ولكن أين الملكة ؟ نعم لقد تمكنت مارى انطوانيت من المروق من أبواب القصر وهى فى زى خادمة تضع على رأسها قبعة عريضة على نسق ما يرتديه فتيات الفجر ؛ ولكن الاشاعات عن محاولة الملك الفرار قد راجت وتناقلتها الألسن ، فلما وصلت الملكة الى البوابة الكبرى وقد اعتمدت على ذراع أحد الخدم رأت عربة «لافيت» مندفعة نحو القصر ، (إذ أرسل فى طلبه قائد الحرس الذى نصبه المجلس الوطنى عينا له فى التولرى) فأثار هذا المنظر فزع الملكة حتى أنها أخطأت الطريق ، فلما وصلت الى النهر انكفأت راجعة ، إذ انها لم تجد أحدا فى انتظارها .

دقت الأجراس معلنة انتصاف الليل ؛ وهناك على مقعد الحوذى لمح فيرسن من بعيد شحبا يعرف صاحبه شديد المعرفة ، هي السيدة ذات القبعة العريضة التي تلبسها العجريات ؛ انها الملكة ! وهكذا اكتمل عقد الجماعة ؛ ثم ارتج باب العربة ؛ وقرقع السائق سوطه في الهواء ، واندفعت شمالا تنهب شوارع المدينة الناعمة حتى إذا وصلت إلى شارع كليشى توقفت قليلا أمام أحد البيوت ليسأل السائق عن مكان العربة الكبرى فيعلم أنها قد غادرت مكانها منذ نصف ساعة . فانعطفت الجماعة شرقا حتى وصلوا إلى البوابة الشرقية وهناك وجدوا العربة الكبرى في انتظارهم ، وقد اعتلى مقعدها سائسان من رجال الحرس المالكى نفسه

هكذا انتقل الملك والملكة وطفلاهما وأخت الملك والوصيفة من هذه العربة الضيقة المقفلة إلى العربة الفاخرة بمقاعد الوثيرة ومساندها اللينة ؛ وما أن أخلت العربة الأولى حتى عادت أدراجها إلى المدينة ، وفي صباح اليوم التالى وجدت مقلوبة فى بعض الحفر ؛ ثم اعتلى الكونت فيرسن مقعد القيادة وما أن تبدت تباشير الفجر الأول حتى وصلت جماعة الملك إلى محطتها الأولى عند بوندى .

وكان فى انتظار العربة جياد وسواس ، نصّب أحدهم نفسه مكان الكونت

فيرسن الذى نزل من مكانه واستدار حول العربية حيث كانت الملكة وودعها بكلمات قلائل ؛ فمدت ماري انطوانات يديها ولمست كفه وأسقطت فيه خاتما كبير الحجم من الذهب الباهت ؛ فتراجع النبيل السويدي واعتلى صهوة جواده وانطلق صوب بورجيه فبروكسل وهكذا اختفى اسمه من تاريخ فرنسا .

* * *

أخذ النهار يتفتح ، وأخذت العربية الملكية تطوى الطريق العام طيا تتبعها عربة نقل تحمل خادمتين من خدم الملكة وبعض الحقائق . وأخذ نسيم الصباح يلمس الوجوه فتفيض نشاطا ، وانفجرت الأسارير وتفتحت الشفاه . ان ساعة ونصف ساعة قد ضاعت فى مستهل الرحلة ، ولكن العربية راحت تنطلق كالسهم المارق فتقطع نحواً من سبعة أميال فى الساعة . وكانت جميع الدلائل تؤكد أن الخطة قد نجحت مما أشاع البهجة فى النفوس فطفقت الجماعة تتحدث عن المستقبل ؛ فها هى ذى ضواحي العاصمة ومزارع الخضر تحتفى ورائهم وتفسح مكانا للراعى والحقول قبل أن تصل المركبة إلى المحطة الثانية عند «موه» .

كانت الخطة أن تأخذ العربية طريق شالون وسنت ميهولد ومن ثم تتابع السير إلى كليرمون وفارين حيث يكون بوييه فى انتظارهم ، وفى الوقت نفسه كان على بوييه أن يرسل إلى جهة الغرب حرسا من الفرسان إلى شامبانيا ليكون سداً منيعاً بين الملك وبين أعدائه ، ولكن ضعف هذه الخطة

واضح . فلو ذهبت الأسرة المالكة متفرقة متخفية صوب الحدود لكان ذلك أسلم لها ، فإن مثل هذه العربية الفاخرة قيمة بأن تستثير حب الاستطلاع إذا ما انحدرت من الطريق العام إلى الطرق الجانبية في شامبانيا والأرجون . وفضلا عن ذلك فإن حرس بويه من الفرسان وأكثرهم من الألمان لا بد وأن يوقظوا الشكوك بين سكان القرى الصغيرة على ضفاف نهر الميز حيث يكثر المناصرون للثورة ، فهذه الأخطاء ترجع إلى الملك نفسه ، الذي كانت تنقصه براعة التفكير كما ينقصه الخيال وسرعة البت في الأمور . فلو ترك الأمر إلى ماري انطوانت وفيرسن لوضعا خطة غير هذه أدق احكاما .

* * *

عند «موه» دخل المسافرون وادي المارن الخصيب ، ومن ثم ارتقوا الهضبة التي يشقها نهر موران والتي اشتهر أمرها إبان الحرب الكبرى ، وتناول الملك وجماعته طعام الفطور من سلة من سلال الرحلات ، فشربوا من كأس واحدة واتخذوا رغفان العيش أطباقا يقطعون عليها اللحم ، وغمرت الجميع موجة من الطمأنينة وراحة البال ، فخرج الأطفال يلعبون على منحدر التل وكان الملك نفسه إذا ما وقفت العربية يخرج ليمشى قليلا ويتحدث إلى الواقفين ؛ لقد كانت هذه منه مجازفة لأن وجه هذا الرجل ذى القبعة المستديرة منقوش على أوراق العملة ولا شك أن لويس قد تعرف عليه الكثيرون ففي مكان يدعى «فيل ميزون»

تعرف عليه أحد السواس ولكنه كغيره من الفلاحين اعتبر هذا أمراً لا يعنيه .

وكما تقدم النهار أرسلت الشمس أشعتها المحرقة على المراعى النائمة فاشتدت الحرارة ، وفي نحو الساعة الثانية وصلوا إلى مكان يدعى « شاتريكس » وهناك عرف الملك رجل يدعى فاليه كان يوماً من الأيام فى باريس فأسرع وأخبر حماه ناظر محطة البريد . ولو أن كليهما من أنصار الملكية المخلصين إلا أن الأخبار تسربت ولا شك الى غيرهما من أنصار الثورة وما أسرع أن انتشرت هذه الأخبار بين جنات الريف .

وفى الساعة الرابعة وصلت العربى الملكية تتبعها عربى النقل الى شالون وهى مدينة كبيرة ، لهذا كان من الصعب أن يبقى هذا السر مجهولاً . ولكن هؤلاء الناس كانوا فى غنىة من أن يدخلوا أنوفهم فى أمر لا يعينهم ، وقد يعود عليهم بالمتاعب ، إذ ليس من واجبهم أن يقفوا فى طريق الأسرة المالكة إذا عن لها أن تقوم برحلة الى شرق فرنسا ؛ وقد حدث أن رجلاً واحداً حاول أن يرغم السلطة المحلية على التدخل فى الأمر ، فلما فشل انطلق بجواده يحمل هذه الأخبار الى بعض المناطق المجاورة المناوئة للملكية . وعلى كل حال فقد خرجت العربى من شالون طليقة وكان الخطر يهدد أصحابها تهديداً جدياً ومن ثم اندفعت فى طريق بوييس الذى ينتهى الى « سانت ميهولد » وبعد أن قطعت العربى سبعة أميال

أو ثمانية وصلوا الى جسر صغير لا يجاوره إلا بيت ريفي يطل وحيداً على مساحات فسيحة من الأرض الجرداء التي لا تغطيها إلا الحشائش الداكنة؛ وتشرف على المكان ربوة تحجب النظر غرباً؛ ولو كانت طبيعة الأرض قد اختلفت عما هي عليه لاختلف تبعاً لها تاريخ فرنسا بأسره.

وفي هذا المكان وصلت سرية من جيش «بوييه» أكثر رجالها من الفرق الألمانية المرتزة يقودها دوق دي شوازيل، وقد أشاعت أنها جاءت لحراسة بعض التحف والنقائس، ولكن العذر كان أعرج إذ أي نقائس ترسل على هذا الطريق؟ وإذا كانت هذه السرية الراكبة من جيش بوييه فعلاً فما بالها تندفع نحو مركز القيادة العامة بدلاً من أن تتجه صوب الأعداء؟

وكان من المتفق عليه بين فيرسن وشوازيل أن يصل الملك إلى هذا المكان في الساعة الواحدة، وقد وصل شوازيل وجنوده فعلاً في الوقت المحدد وطفقوا ينتظرون الركب الملكي تحت أشعة ذلك اليوم المحرقة. ففي بادئ الأمر لم يكن هنالك سوى الجنود وعدتهم خمسون رجلاً وبعض السواس والفلاحين المتفرقين في الحقول، ولكن سرعان ما انتشرت الشكوك بينهم وأخذ الفلاحون يهجرون عملهم ويتجمعون حول الفرسان حتى فاقوهم عدداً. وقد حدث أن نزاعاً نشب بين صاحب إحدى الضياع المجاورة ومؤاجريه فظن أن فرقة شوازيل جاءت لتأخذ الأمر بالقوة. عند ذلك سرى الهمس بأن

القرى المجاورة قد نزعت إلى العصيان ، وأن الثورة قد أقامت من كل قرية قلعة عسكرية .

كانت الطرقات خالية تسبح في أشعة ذلك اليوم الصائف وكان السكون شاملاً إلا في جوار محطة البريد حيث أخذت جموع الفلاحين تتكاثر وتتساءل مابال هؤلاء الجنود الأجانب لا ينزلون عن سروجهم ؟ وما بالهم لا يتابعون سيرهم ليستقبلوا العربدة التي تحمل النفائس ؟ ثم إذا باشاعة تنتشر ولا يعلم إلا الله كيف نشأت تقول بأن الملك سيمر من هذا المكان !

طفق شوازيل ينتظر وهو معتل صهوة جواده ، حتى إذا نظر إلى ساعته ووجدها الخامسة بدأ الشك يخامرهم وتيقن من أن الملك لم ينفذ ما عزم عليه . لقد كان ذلك في نظره أمراً محتملاً لهذا أصدر الأمر لرجاله بالعودة ، فبعد أن أبدل جياد عربته الخاصة أنفذ ورقة إلى الضباط في سنت مينهولد وكاير مونت يفصح لهم فيها عن شكه من وصول عربة النفائس في ذلك اليوم ؛ عند ذلك ثنى الفرسان أعنة جيادهم وعادوا من حيث أتوا ، حتى إذا ما وصلوا إلى قرية أوريفال انحرفوا يساراً مخترقين غابة الأرجون حتى لا يشير ظهورهم الشكوك في مينهولد ؛ فما أن انتصفت الساعة السادسة حتى كان آخر فارس قد اختفى عن الأنظار ، عند ذلك تفرق الفلاحون للعشاء وبدأ الطريق الأبيض خالياً خاوياً مرة أخرى .

ما هي إلا ربع ساعة حتى كانت العربية الملكية قد وصلت . كان الملك يتعرف على الطريق بخريطة وبدليل يحمله ، فلما وقفت العربية سأل عن اسم المكان ، فتذكر أن شوازيل كان عليه أن يلتقي به في هذا الموضع ، فساورت الملك وجماعته الريب والشكوك للمرة الأولى . لقد دلت النتائج على أن الدقائق الخمس عشرة كانت فارقا بين النجاح والفشل

تقدم المساء ، وبعد تبديل الخيل انطلقت العربية الملكية بين المراعى والطرق الزراعية ، حتى إذا غربت الشمس كانت هضبة الأرجون بأحراشها مائلة أمام الهارين ، تمتد تحت أقدامها مدينة سنت مينهولد ؛ وفي ساعة العشية تفيض شوارع هذه المدينة الريفية حياة ونشاطا ، فكان الرجال والنساء على أبواب الحانات والبيوت يشربون ويسمرون . وكانت تجوس خلال المكان قبضة من الجنود الفرنسية تحت إمرة الكابتن داندوان أرسلها بوييه .

وهناك على عتبة دار البريد وقف رجل في مقتبل العمر يدعو « جان بابست درويه » كان يوما من الأيام من الفرسان في جيش كوندية . وكان « درويه » هذا داكن السحنة ، جامد الملامح ، قوى العضلات ، سريع الحركة والبت في الأمور . وفوق ذلك كان من أنصار الثورة المتحمسين ، سمع أبان النهار

بالاشاعات التى تتناثر من جهة الغرب ، فلما رأى بعينه عربة النقل بأحمالها من الحقائق النسوية تتبعها العربة الصفراء الكبيرة بسواسها ذوى الأردية المزركشة ، تيقن أن وراء الأكمة ما وراءها .

كانت أستار العربة الصفراء منحسرة ، لكى تدع نسمة العشية تسرى إلى داخل العربة فبدا وجهها الملك والمملكة واضحين لعيون الناظرين . ولكن العربة لم تتمهل بل تابعت سيرها إلى جسر « الايزن » وأخذت ترتقى المرتفع الذى تكسوه الغابات ، ولكن دوريه رأى ما يكفيه لكى يجمع رأيه على شئ . إن الملك والمملكة فى طريق الهرب ، ولا بد انهما يتجهان صوب ميتر ! .

لقد كان درويه كما قلنا رجلا حاسما سريع الحركة ؛ فسرعان ما دقت الطبول ، وألقى القبض على داندوان ورجاله ونزع سلاحهم ، ثم انطلق فى أثر العربة فى صحبة زميل قديم له من فرسان جيش كونديه يدعى وليم صاحب فندق .

طفقت العربة الملكية بجيادها الاحد عشر وسواسها ذوى الحلال الصفراء المزركشة تهب الطريق الصاعد حتى وصلت إلى قمة مرتفعات الارجون ، وكان عليها بعد ذلك أن تنعطف إلى قرية كليرمونت على مسافة أربعة أميال فى وادى نهر الآير وهناك تنعطف مرة أخرى لتواصل رحلتها إلى قارين

وهى تبعد تسعة أميال أخرى تقطعها العربية في طريق مستوٍ يقع في بطن الوادى .
اعتلى درويه ورفيقه صهوة آخر جوادين وجداهما في سنت مينهولد
وانطلقا في أعقاب العربية الملكية التى سبقتهما بساعة من الزمان وكانا يعتقدان
انها فى طريقها إلى مبرز ، لهذا كان السباق شاقا عنيفا .

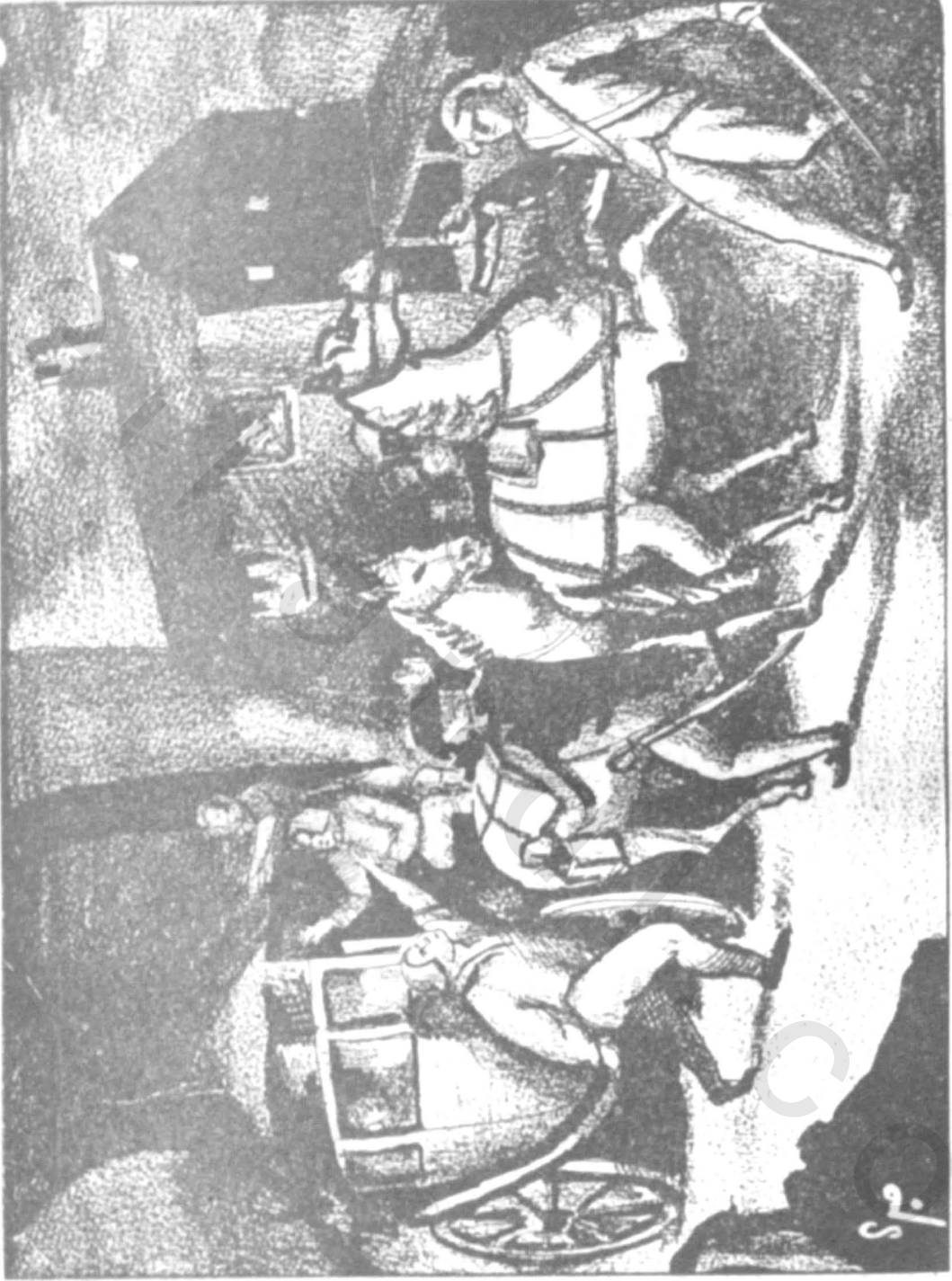
وصلت العربية الملكية إلى كليرمونت فى الساعة العاشرة إلا الثلث ، وهناك
وجدوا بعض رجال الجيش الملكى فى انتظارهم فلم يجسر درويه على عمل شىء
إذ كان كل ما أمله أن يرفع علم الثورة فوق المدينة التى تناصره . وهكذا أخذت
آمال الملك وجماعته تتضاءل بعد تلك الثقة التى كانت تغمر نفوسهم فى
الصباح ، وبدأوا يحسون بأن الخطة لم يحسن تديرها وانهم وصلوا متأخرين
وان عليهم أن يرقوا من قارين فى الوقت المناسب حتى يكونوا فى حمى
جيش بوييه ، فلم ينتظروا فى كليرمونت إلا نصف ساعة لتبديل الخيل ،
ومن ثم اندفعت العربية بأقصى سرعتها فى وادى الآير .

فى هذه الأثناء كان درويه ورفيقه ولیم على مسافة ميل واحد من كليرمونت .
لقد أرخى الليل ستاره ولم يكن يضىء الطريق إلا بصيص القمر الباهت ،
وبينما هما كذلك اذ سمعا أصواتا تقترب وكانت هذه أصوات السواس فى
طريق عودتهم من سنت مينهولد ، فذكروا للمطاردين أن العربية الملكية لم
تسلك طريق مبرز إذ أنهم سمعوا الأوامر تصدر الى قائد العربية بالانحراف الى قارين .

لم يتعثّر درويه في تفكيره بل حزم أمره في الحال على أن يسبق العربّة الملكية قبل أن تصل إلى قارين ، فهجر طريق الوادى المنبسط واندفع صعداً في الطريق الذى تغطيه غابات الارجون فبذلك يكسب بعض الوقت .

لقد كانت كما دعاها كارليل « ليلة المهاز » فهناك ثلاث جماعات تتسابق للوصول إلى قارين ، كان الملك والملكة بعربتهما الفاخرة فى الطريق الأوسط ، وكان الدوق دن شوازيل الذى اختصر الطريق بفرسانه مجانبا سنت مينهولد وسار فى وسط الغابات التى ضاعت فيها معالم الطريق ، بينما انطلق درويه ووليم فى الطريق الجانبى ، فحملت إليهما ريح المساء صوت العربّة الملكية من جهة الشرق ، ومع ذلك لم يفقد الهاربون الأمل فى النجاة ، لأن بوييه قد نصب ابنه على رأس كوكبة من الفرسان فى الجانب الشرقى من قارين على مقربة من جسر نهر الآير .

بعد أن طوى درويه سبعة أميال انتهى إلى نصب قديم من الحجر أطلق عليه اسم « الفتاة الميتة » ومن هناك انعطف يمينا حتى إذا برز من الغابة بدت لعينه أضواء قارين ، ولكنها كانت تبدو غافية ، فلم يبق أمامه سوى أحد عشر ميلا أخرى قطع مثلها فى ساعة كاملة على أرض غير معبدة . وبينما هما واقفين لإراحة جواديهما اللذين أنهكهما العدو المتواصل ، تسقطا صوت العربّة ولكنهما لم يسمعا شيئا ، فهل ياترى حدثت الأعجوبة فوصلت العربّة سالمة بأصحابها إلى النهر فعبّرته إلى حيث الأمان فى كنف بوييه ورجاله ؟



الهرب إلى فارين ..

انطلق درويه إلى الحانات يسأل روادها المتأخرين عن عربية فاخرة في ذلك الطريق ، ولكنهم أجابوه تقياً ؛ إذ لم تعبر عربية من العربات طريق قارين في تلك الليلة ، ونجأة دوى صوت صائح فتلفت درويه خلفه فإذا به يلمح على رأس طريق كليرمونت المنحدر أضواء مصاييح العربية المنشودة التي كانت واقفة في انتظار رجال حرس بويه !

ولم يمض طويل حتى عاودت العربية المسير ، وأصبح صريرها يسمع من بعيد ، عند ذلك اندفع درويه إلى حان يدعى « الدرع الذهبي » يستنهض همهة كل رجل فيه باسم فرنسا ليعمل على وقف العربية التي تحمل الملك الهارب .

لم يكن لدرويه سوى وسيلة واحدة هي أن يقفل جسر الآير . وحدث أن عربية ضخمة من عربات الأثاث كانت منتظرة على ذلك الجسر وقد حلت منها الخيول استعداداً لسفرها في الصباح ، فما كان من درويه وقبضة من أتباعه إلا أن قلبوا العربية في مكانها فبذلك استحال المرور على الجسر . وفي تلك الأثناء ظهر عمدة القرية على المسرح وعمل على أن يوقظ أهل كل بيت على ضفة النهر الغربية .

كان الطريق إلى الجسر يمر بقبو كنيسة قديمة ، وعند هذا القبو وقف رجلان يحملان سلاحاً ، حتى إذا مرت العربية أمراها بالوقوف . وعندما طلبت جوازات السفر وأخذت البارونة دي كورف تبحث عنها أطلت الملكة من النافذة ، ورجت الرجال الواقفين كائناً من كانوا أن يقوموا بواجبهم على وجه من السرعة ، لأنها ترغب في الوصول إلى حيث تسافر بأسرع ما يمكنها .

لقد كانت هذه كلمة شؤم ذكرت عنها فيما بعد !

في أثناء ذلك كان الرجال المسلحين يزدادون عدداً ، بيد أن المسئولين وجدوا جوازات السفر صحيحة ، لهذا لم يروا مندوحة من الإفراج عن العرب وأصحابها . لقد كانت الملكية في كفة القدر ، وكاد ينتهي الأمر لولا أن تدخل درويه الذي كان يعلم أن بويه الابن في انتظار العرب الملكية على الضفة الأخرى من النهر وأن أباه سوف يصل في مطلع الفجر بقوات كافية لنجدة الملك . كان على درويه أن يحاهد الزمن ، فلا يسمح لعربة الملك أن تعبر جسر الآير بحال من الأحوال حتى الصباح .

نجح درويه في تهديد العمدة وأرغمه على أن يؤخر ختم جوازات السفر إلى الصباح إذان الليلة دامية الظلام والخييل مجهدة منهوكة . فلم يجد الملك والملكة مندوحة من قضاء الليل في بيت العمدة ، ومع ذلك كله فلم تتلاش آمالهما . إذ أن هناك شوازيل وفرسانه في انتظارهم ، أولئك الذين راحوا يتخبطون في غابات الأرجون ؛ بينما طفق درويه يدق الطبل حتى أيقظ كل هاجع في فارين فزخرت بهم الشوارع وراحوا ينتظرون حدوث حادث لا يعرفون ماهو .

وعندما انبلج الفجر وصل شوازيل وفرسانه الألمان وعمل على إنقاذ الملك بالفعل فأمر رجاله بمحاصرة بيت العمدة وتطهير الشوارع من الناس باستخدام النار ، ولو كان رجاله من الفرنسيين لحالفه النجاح ، إذ أن الطرقات حول البيت قد مزق سكونها

دق الطبول وصياح الرجال الذين هرعوا إلى حمل ما وجدوه من سلاح حتى اكتظ بهم الميدان . أما بوييه الابن فعند ما طرق أذنه دق الطبول لم يعرف ماذا يصنع فقفل راجعاً إلى معسكر أبيه .

وما أن تفتح الصباح حتى كان أهل الناحية متراصين حول بيت العمدة ، ولما كان مسيو « سوس » أحد أولئك الذين يعجدون الرسميات فقد بصم على جوازات السفر وسمح للأسرة المالكة بالسير . ولكن درويه كان له رأي ، وكان هذا الرأي قد اعتنقته الجماهير التي زحرت بها الشوارع .

لم تكن الفرصة قد فلتت بعد من يد شوازيل لو لم يكن رجاله من الجنود المرتزقة ، ولكنهم وقد رأوا هذه الجموع المتراسة أمامهم امتنعوا عن إطلاق النار عند ما أمرهم بذلك للمرة الثانية . وفي هذه الأثناء أطل الملك في معطفه الأخضر من النافذة ، فقابلته الجماهير بالهتاف وبشيء آخر جعل آماله تنهار أمام عينه ، عندما أخذت عشرة آلاف نفس تنادى بصوت واحد « إرجع إلى باريس ! »

وفي الساعة السادسة أو نحوها وصل إلى قارين رسولان من المجلس الوطني في باريس ، وصل بايون وروميف بعد رحلة جنونية سلخافيا يوماً وليلة يحملان أمراً من المجلس بعودة صاحبي الجلالة على الفور . لقد أثار ذلك غضب الملكة فألقت بالرسالة على الأرض ، أما الملك فكان قد حزم أمره ، فقرر العودة إلى باريس حيث يجد الترحيب دائماً من أهلها إذ هو بطبعه يأنف من حياة التستر التي لا وقار فيها .

لم يكن هناك مجال للخيرة . فطلأع فرقة بوييه بدت إذ ذاك على جسر الآير، ولكن كان عليها أن تواجه جمهوراً قوامه عشرة آلاف رجل لا يشتت شملهم إلا المدافع ؛ ولو أن بوييه قد وصل فى الوقت المناسب لما فعل شيئاً .

وفى نحو الساعة السابعة ، كان بوييه نفسه على جسر الآير يتبع بعينه سحابة تراب ترتفع من طريق كليرمونت حيث العربة الملكية فى طريق عودتها إلى باريس يتبعها آلاف من المواطنين .

لقد انتهت المغامرة ، وتحطم أمل كاد أن يكون يقينا ، بسبب سلسلة من الأخطاء اكتنفها سوء الحظ .

وهكذا عاد الملك والملكة إلى سجن لم يفتح بابه إلا إلى درجات المقصلة .

obeykandi.com



أشرو

القمر ولما تدق الساعة التاسعة بعد ..

وكانت الليلة ساكنة ، فسرت الأصوات سابحة فوق سطح الماء ،
وهناك عند مرافأ الجزيرة الصغير المنخفض اصطفت السفن منشورة الصواري فبدت
كأنها مرسومة على لوحة الفضاء الفسيح ، ووقفت الجماهير تنتظر ، ووقفت المدينة
بدورها تنتظر خلف الجماهير ، تنظر من خلال نوافذها المفتوحة المضيئة إلى
الميناء الصغير ، وكانت الأضواء تلمع في كل مكان على منحدرات التلال ...

وكانت الدروب الضيقة تفيض بالحياة ، وكانت أسقف المنازل غاصة
بالنظارة وكانت الجدران مستورة بصفوف المنتظرين . ولم تعد تسمع نغمات الغناء
والانشاد . لقد كان ذلك منذ ساعتين عندما دوى الهتاف عاليا في ركاب عربية
مفتوحة انحدرت نحو الشاطئ وقد تبعثها عصابة من الرجال تسير على الأقدام ،
ولم يكد يصل الموكب إلى ضفة الماء حتى استحال الهتاف إلى غناء ، وأخذ
الملاحون يتجاوبونه بأصوات قوية انتشرت في كل اتجاه كأمواج البحر .

وسمعت أصوات المجاذيف تنغمس في الماء الأسود وتحرك ساكنه ،
وسرى ضوء فوق ظهر الماء وانتهى إلى سفينة راسية ، ثم انطلق مدفع ، حتى
إذا ما تبدد الدوى في الفضاء عاد السكون وغمر المكان من جديد ؛ ولكنهم
ما فتؤا ينتظرون أن تهب الريح وقد وافت الساعة على التاسعة .

وفي غرفة خالية على رأس ذلك التل ، تقع العين على كتاب مفتوح راح ينتظر صاحبه في سكون إلى جوار سرير للنوم ، وأشرق القمر ونفذت أشعته إلى الغرفة ، وتسلمت على الأوراق الممزقة المنشورة على أرض المكان ، وعلى مصور جغرافي كبير مفتوح ثبت عليه أحد من الناس جملة دبايس ذات رءوس ملونة . وعلى سطح الماء الداكن صمتت الأصوات وطفقت الجماهير المترقبة بل البيوت البيضاء والتلال التي غمرتها أشعة القمر تنتظر هبوب الريح .

مرت الساعات تباعا ، ثم دقت ساعة عند الشاطئ اثنتى عشرة دقة ، لقد انتصف الليل ! وفي تلك اللحظة هبت نسمة من الجنوب فسرت بين حنايا تلك الحليكة الدامسة ، عند ذلك خفقت الأشرعة المنشورة وكأن الحياة دبت فيها ، وأخذت الأذرع المكدودة تعمل جاهدة ، ولم يمض طویل حتى تحركت القافلة البحرية في صمت تغزو الماء والظلام .

وخلف المغامرون جزيرة وراءهم غارقة في ضوء ليلة قمرية من ليالى الربيع . اسم هذه الجزيرة إلبا .

وتاريخ تلك الليلة ٢٦ فبراير ١٨١٥

تحركت القافلة جماعة ؛ السفينة انكنستان ، وست سفن أخرى دونها حجما ، واستقل سفينة القيادة أربعمائة من الرجال ، ارتدوا معاطف الميدان الكبرى ، كما حملت بعض المدنيين وكوكبة من الجياد المرسجة ، بينما تجمع ستمائة رجل

آخرون فى تلك المراكب الساحلية الصغيرة ذات المصاييح الجانبية التى كانت تتأرجح فى ضوء القمر ، وأخذ الواقفون على الشاطئ يرقبون الأشرعة البيضاء المنشورة على صفحة السماء الزرقاء الداكنة ، وكان ضوء مصباح المراقبة ينير صارية سفينة القيادة، ثم أخذ هذا الضوء فى الخفوت شيئاً فشيئاً حتى خرجت القافلة من الخليج الساكن القمر إلى عرض البحر الفسيح .

كانت الريح جنوبية ، وهكذا دفعت القافلة إلى ساحل أوربا ، ولكن ما تنفس الصبح حتى سكن الهواء ، ولاحت لراكبى سفينة القيادة فى ضوء الفجر المتفتح سفينة حربية بريطانية ، هى التى كانت تحمل مندوب القوات الحليفة فى طريقه عائداً إلى الجزيرة ، فكان على المهاربين أن يعملوا جهدهم للمروق سراعاً إلى بر الأمان ، قبل أن تشيع أخبار هربهم .

وبعد ظهيرة ذلك اليوم بدت فى الأفق سفينة حربية أخرى ، لقد كانت طراداً فرنسية أقامت من طولون . وفى تلك الأثناء كان أسطول نابليون الصغير قد تفرقت مراكبه فى عرض البحر وأصبحت سفينة القيادة منفردة بنفسها فكان لابد من الاستعداد للطوارئ ، فهرع الجنود إلى المدافع ورفعوا أستارها ، وأداروا فوهاتهما ، حتى إذا تم ذلك فى حذر وحيطة ، دوى صوت مجلجل يأمر رجال الحرس بخلع معاطفهم والارتقاء على بطونهم فوق سطح السفينة ، حتى لا تلمحهم عين متطلعة من عيون الطراد العابرة .

وكانت الريح تهب رخاء فحملت الطرادة صوب سفينة الهاربين حتى
حاذتها ، عند ذلك رفع أحد ضباط السفينة البوق إلى فمه وحيا الطرادة
بكلمات تفيض براءة . . .

— إلى أين المقصد ؟

— إلى ليجهورن . . وأتم أين تقصدون ؟

— إلى جنوا . أمن حاجة إلى رسالة نحملها ؟

— لا شكراً ! وكيف حال الرجل الكبير ؟

— إنه بخير عميم !

نعم لقد صدق المتحدث ، لأن ذلك الرجل الذى يميز بعريض أكتافه
ويعطفه المشهور كان واقفا على غير بعيد من المتحدث . وكانت الكلمات
يحملها الهواء الرخى قترن واضحة جليلة فى الآذان ، وهكذا سار نابليون ميمما
شطر ساحل فرنسا ...

لم يكن يخطر على بال أحد أن يظهر نابليون من جديد على المسرح
الفرنسى ، ولم يكن ليخطر على بال أحد أن يلتقى إنسان بالامبراطور المنفى فى عرض
البحر على ظهر سفينة حرية ذات ستة عشر مدفعا ؛ إذ ان العالم كاد ينسى
أمره بعد أن أخذت بواكير السلام ترفرف عليه .

نعم لقد ألفت أوروبا السلاح منذ عام ، وبدأت ترتب شئون

بيتها منذ أن زلزلت أركانها حروب تلك الثورة الكبرى التي لم تشهد مثلها من قبل .

في تلك الأثناء كان رجال السياسة مجتمعين في فيينا يعملون ما وسعهم الجهد في عقد الاتفاقات وتزويق المعاهدات ، فأرجعوا حدود فرنسا إلى حيث كانت قبل نابليون ، ثم راحوا يقيمون الملوك الذين زلزلت عروشهم في مكانهم القديم ، كما يفعل الخزاف عندما يلصق قطع الخزف المكسورة جنباً إلى جنب ، أما الملك جورج الثالث الأنجليزى فإزال على عرشه ، بينما عاد لويس الثامن عشر الفرنسى إلى قصره مرة أخرى وقد حكم في أعدائه حد الجيلوتين !

لقد قرر الحلفاء المنتصرون التخلص من نابليون ، ولكنه وقد اعتزل العرش لم تكن هنالك ضرورة للقسوة عليه ، لهذا اقترح القيصر أن يمنحه الحلفاء معاشاً وأن يتركوا له لقبه ، ولكن حريته كانت خطراً على سلام أوروبا التي لم تهدأ ثورتها بعد ، فكان لابد من حاجز ما ي فصل ما بين هذه الشخصية المتقلقة وأرض القارة ، فكان أن بحثوا له عن جزيرة تكون له مشوى ومنفى ، فتخيروا له كورفو ثم تخيروا له كورسيكا . ثم قر قرارهم على هذه الجزيرة الصغيرة « إلبا » فأصبحت « إلبا » منذ وطئها قدم نابليون أصغر أمبراطورية في العالم .

ومنذ اللحظة الأولى تسلطت على نابليون فكرة تمثيل الامبراطورية ،

فقضى الشهور الأولى يذرع أرض هذه الجزيرة دون كلل أو ملال يدرس ويبحث ويفكر ، حتى إذا أجمع رأيه على شيء بدأ فى تنفيذه بذلك العقل الجبار الذى كان يدير به شئون أوربا جميعها ، فأنشأ له وزارة للحرب وبحث شئون الدفاع الساحلى ، وراح يصدر اللوائح والتنظيمات ويحل المشاكل بتلك السرعة التى عرفت عنه ، ولأول مرة فى تاريخ « إلبا » عرفت هذه الجزيرة الصغيرة معنى النظام ، بل انه على رأس التل أحال ييتين ريفيين إلى شبه قصر أمبراطورى ، وعلم فلاحات « إلبا » أصول التقاليد المرعية فى قصور الملوك .

لقد كانت جميع الشواهد تدل على أن الامبراطور قد نسى ماضيه العظيم ، وانه قد ييت العزم على أن يجعل من إلبا مثواه الأخير . نعم إنه لم ينس كرامته وغروره كامبراطور فنقش شعاره الملكى على الحائط ، بل لم يغب عنه أن يأمر المجلد فى ليجهورن بأن ينقش حرف N على كعوب كتبه . وكان يقضى لياليه يلعب الورق مع أمه التى يحبها (والتي كان يغشها كذلك) ومع أخته العزيزة ، حتى إذا استعد للنوم راح إلى المعزف ينقر بأصبع منفرد نفمة واحدة متكررة .

أترأه نسى كل ذلك التاريخ الحافل ؟ لا يظن أحد ذلك ، « فإلبا » أصبحت منذ أن وطئها أقدامه مقصداً للزوار والسائحين ، وكان من جانبه يرحب بهم لاسيما إذا كانوا من عظماء الانجليز . فقد كان يتحدث إليهم

عن ماضيه ويستوضحهم شئون العالم المنكورة عنه ، يستخبرهم عن مؤتمر «ثينا» وما يدور فيه ، وعن فرنسا وما يجري فيها من أحداث . فكان يسأل زائريه : ألا فأصدقنى القول ، أظن فرنسا راضية سعيدة ؟

فإذا ما هز زائره كتفيه ، يحيب نابليون عن سؤاله بنفسه : ان فرنسا لن تكون راضية ، بعد أن نكست هامتها شروط الصلح القاسية ، ان ملك فرنسا صنيعه انجليزية ، فضلا عن أن تعيين ولنجتون سفيراً في باريس ليس من اللياقة في شيء ، وفوق هذا فإن فرنسا لن يستريح بالها باقتطاع بلجيكا من الامبراطورية وهى التى يعتبرها كل فرنسى قطعة من أرض الوطن ، لقد كانت فكرة استرجاع بلجيكا كالكابوس تلاحقه في كل مكان .

لم تعد تشغل بال نابليون شئون مملكته الزراعية ، لقد بدأت أفكاره تتجه صوب ذلك الشاطئ الذى يفصله عنه خيط مائى أزرق . ولم يكن أولئك الساسة المجتمعون في ثينا ليتصورون أن نابليون مافئى يفكر في فرنسا ، لقد كانوا في ذلك جد مخطئين مع شدة حذرهم وتيقظهم

وفي شهر فبراير المنصرم اقترب من شاطئ الجزيرة قارب يحمل ملاحا إيطاليا ، ولم يكن ذلك الملاح إلا «فايرى دى شابولون» أحد أنصار بوناپرت الأشداء ، جاء يزور سيده متخفيا ، جاء إليه ليروى كيف أن فرنسا قد سادها القلق ، وكيف ان مؤامرة تدبر في شمالها للتخلص من الملك لويس وإعلان الوصاية باسم نابليون الصغير؛

عند ذلك صاح الامبراطور : ولماذا الوصاية ؟ أميت أنا !
كانت مقابلة فليرى هذه خاتمة كل شك أو تردد فى نفس الامبراطور ، فما كاد
زائره يعود من حيث أتى حتى صدرت أوامر نابليون بإعداد الأسطول الصغير
للعمل . فطلبت السفينة الأولى بحيث بدت كأنها مركب بريطانى ، ووسقت
السفن الأخرى بأنواع الأطعمة والعتاد وصرفت للجنود أحذية جديدة ، ثم نقلت
عربات الامبراطور إلى ظهر مركب من هذه المراكب .
لقد كانت الجزيرة خلال هذا الأسبوع فى شبه حى ، حتى إذا كانت الليلة
الموعودة سكنت الريح وهدأت مياه البحر وتوج القمر أفق السماء !
حدث هذا وكأن الأقدار قد شاءت أن يحدث ، لأن المندوب الذى عينته
دول الحلفاء ليراقب الامبراطور فى منفاه قد تغيب بضعة أيام فى ليجهورن !

عندما تفتح فجر اليوم الثانى ، كانت سفينة الامبراطور كنقطة متحركة على
سطح الماء الأزرق الفسيح ، وعندما تنفس الصبح بدت من بعيد سلاسل الألب
متألقة ساكنة ، وتحت منحدرات هذه القن كانت تنام قرى لأسماها رنين كرنين
الأجراس الفضية فى أذن كل فرنسى ، انها أسماء تلك المواقع التى انتصر فيها
القائد بوناپرت ، والآن فى سكون الفجر تسبح مركب الامبراطور الشيخ فى
ظلال هذه المرتفعات التى كأنها ترقبه فى سكون وخشوع . .
وقبل أن ترتفع الشمس كثيراً فى الأفق لمح المراقبون بارجة حرية الإنجليزية من بعيد

ولكن سرعان ما اختفت متجهة صوب سردينيا، وهب النسيم لطيفاً أثار الذكريات في نفس نابليون الذي تلفت باسماء حوله قائلاً : إنه جو « اوسترلتز »^(١) . وبعد ذلك لم يعد من سر محجوب عن أبصار هؤلاء المغامرين . انهم في طريقهم إلى فرنسا يأخذونها على غرة ، نعم إنه لم يحدث من قبل أن غامر ملك بمثل ما يغامر به نابليون ، ولكنه كان يعتز بهذا التفرد في التفكير ، وكان يطمئن رجاله بأن الثورات قد رفعت رأسها فعلاً في باريس ، أما في شمال فرنسا فقد أعلن الجيش العصيان ، وأقيمت حكومة مؤقتة هناك ! لقد كان نابليون يلعب بخيال رجاله ، بل انه لم يتردد في أن يؤكد لهم بأن فرقا من الجيش قد رفعت إليه يمين الولاء والإخلاص !

— إننى سأدخل باريس دون أن أطلق رصاصة واحدة !

وفي جوف السفينة جلس عشرات من رجال الحرس ينسخون بأصابعهم التي لم تألف الكتابة السريعة منشوراً كتبته الامبراطور وطبعت منه بضع نسخ في الجزيرة ، انه أول نداء يوجهه نابليون إلى أهل فرنسا بعد اعلان تنازله عن العرش ، انه نداء يفيض عاطفة تهز مشاعر كل فرنسى ، لأنه يذكرهم بذلك المجد الذى بناه لهم من مدريد إلى موسكو ، يحذرهم من الخونة ويذكرهم بخنوع آل بربون وذلهم ، ثم إذا به يكتب منشوراً آخر يدعو فيه الجيش إلى العصيان ، ثم ثالثاً يطلب فيه من الحرس الوطنى أن يؤدوا واجبهم ويدوسوا شعار الملكية بأقدامهم .

(١) إحدى المواقع الكبرى الذى انتصر فيها نابليون على الامبراطورية النمساوية .

وهكذا انقضى ذلك اليوم بين إعداد المنشورات ومنح الأوسمة وتزيين الأكتاف بالشارات ، حتى إذا أمسى المساء اقتربت سفائن الأسطول بعضها من بعض . وعندما بزغ صباح اليوم الأول من شهر مارس بدت شواطئ فرنسا للعيون . عند ذلك اعتلى الامبراطور ظهر السفينة ، وأمر برفع العلم الفرنسي المثلث ، حتى إذا وصل رأس الصارية علا الهتاف داويا من جميع سفن الأسطول .

وقبل أن تقبل العشية رسا هذا الأسطول الصغير في خليج جوان ما بين انتيب وكان ، فنزل الجنود إلى الشاطئ وأفرغت السفن من الميرة والذخيرة ، وما أن أمسى المساء حتى كان الامبراطور على أرض فرنسا .

لقد بدأت المطاردة ، فمذ وصل المغامرون إلى أرض فرنسا أصبح التفكير في النكوص أمراً مستحيلاً ، فهناك على تلال الجزيرة خلفوا وراءهم ضابطاً انجليزياً غاضباً ثائراً عندما وجد بيت سجينه خالياً من صاحبه ، فلا بد أن أخبار الهرب قد انتشرت ، لهذا كان عليهم أن يسرعوا الخطى قبل أن يتعقبهم المطاردون .

وفي هذه الأثناء كانت أوروبا تعيش في أوهام السلم ، كانوا في لندن لا يتحدثون إلا عن زواج لورد بايرون ، وعن سيدات القصر الجديديات ؛ وعن أخبار بعثة أورليان ، وكان الباريسيات يستعرضن آخر الأزياء في التويلارى ، وكان الساسة في فيينا يتسابقون بالعربات الفاخرة حول شوارع المدينة .

بينما كان العالم سادراً في أحلامه هكذا ، كان رجل عريض الأكتاف

يستره معطف طويل فضفاض يجلس التماسا للراحة حول نار موقدة تحت ظلال الأشجار في الطريق إلى مدينة كان الصغيرة ذات ليلة راتقة باردة ، إنه من العجب أن يغزو رجل واحد فرنسا بأسرها على رأس ألف من الاتباع وبنداءات ثلاث مطبوعة! جلس هذا الرجل المغامر ينتظر عودة رسله ؛ إذ بعث جماعتين من رجاله ، الأولى في اتجاه انتيب وهذه لأثر لها ، والثانية في طريق كان ؛ ولكن رجاله كانوا يسقطون على الأرض اعياء ، وقيل ان مبعوثيه إلى انتيب قبض عليهم ، ولكن الامبراطور لم يفعل شيئا في سبيلهم ، إذ ان الوقت أثمن من انتقاذ حفنة من الرجال . لقد كان يقول « إذا قبض على نصف رجالي فما زال لدى النصف الآخر ، وإذا قبض على كل رجالي فما زلت أنا أوصل السير منفرداً إلى باريس » .

لاريب أن أخبار هروبه قد فشت ، لهذا لم يكن بد من أن يسرع من توه ، فلما انتصف الليل كان الرجال على أهبة الرحيل وقد تقد كل واحد منهم مرتب أسبوعين ، فتحركت الفرقة صوب كان ، تحت ضوء القمر ، وعندما وصلوا إلى المدينة عسكروا في ظاهرها ، فما أسرع أن اجتمع حولهم أهلها الذين كانوا في حيرة من أمر هؤلاء الغرباء إذ أنهم عندما أبصروا السفن تقترب من الشاطئ في الصباح ، حسبوا المغامرين عصابة جزائرية من القرصان ، ولم يخطر لهم على بال ان الامبراطور نفسه على رأس هذه الجماعة !

لم يرد الامبراطور أن يعيد ذكرياته المريرة عندما كان في طريقه إلى المنفى منذ عام مضى ، لقد كان أهل بروقانس ثائرين حائقين ، لقد كانت جماهيرهم تصفر

وتصيح في وجهه ، وكانت شتائمهم ترن في أذنه . لهذا أبى أن يجعل طريقه إلى باريس في وسطهم ، فانعطف شمالا وسار نحو جرينوبل إذله فيها أصدقاء وأنصار . وهكذا سارت هذه القافلة في طريق جبلي وعمر مقفر ثلاثة أيام طوالا ؛ كانت قافلة من الجنود والبغال والفرسان الذين كانوا يسيرون صعدا على الاقدام يحملون سروج الخيل على أكتافهم . لم يكن في هذه القرى صديق يحبيهم ، لم تكن تنتظرهم صفوف الجاهير تصفق لهم وتشجعهم ، بل ان «جراس» نفسها فكرت في مقاومة هؤلاء المغامرين ، إذ أعلن عمدتها أنه مخلص للملك ؛ وكان من المحتمل أن يحدث أكثر من هذا لولا أن جنرا لا متقاعدا من أهلها ثبط عزيمته بدعوى خلو المدينة من البارود ، ثم جاء بعض المناصرين القلائل يحملون باقة أزهار إلى الامبراطور وشيئا من النبيذ إلى رجاله ، ثم وفد عليهم جندي أعشى متقاعد جاء يسعى تقوده امرأة ليقبل يد نابليون ، الذي سمع لأول مرة منذ أن ترك إلبا فرسيا يصيح «ليحي الامبراطور !» . وفي ذلك اليوم وصلت أخبار نابليون إلى مرسيليا ، وما أسرع أن بعث الجنرال «مسينا» فرقة من جنوده لتقطع الطريق على أولئك الآبقين ولكنها لم تلتق بهم إذ أن القافلة سبقتهم ، وفي الوقت نفسه بعث «مسينا» برسالة إلى ليون يحملها بعض الفرسان ، ومن هناك نقلتها أسلاك البرق الحديثة إلى باريس .

أعاد الملك قراءة هذه الرسالة العجيبة وهو في قصر التيليري ، ثم بعث في طلب «سولت» وزير الحرب ، وكان سولت متشككا حتى توافرت له الشواهد

على صدق البرقية ، ومن ثم عكف على صد هذا الهجوم المباغت ، فأرسل ثلاثين ألفا من الجنود وعلى رأسهم أخو الملك وولده ، وإن كان الثلاثة من غير رجال الحرب المدربين ، ثم فكر في أن يستعين بقواد نابليون القدماء أولئك المرشالات الذين تخلوا عنه في محنته الأخيرة ، فأرسل في طلب ماكدونالد وسان سير وناي ، وفي الليلة نفسها كان هذا الجيش في طريقه إلى ليون .

وفي تلك الساعة وعلى مسيرة ثلاثمائة ميل كان نابليون يغط في نومه على أصوات الموسيقى والراقصين في شوارع « جاب » . لقد أصبح من المؤكد أن المنشورات فعلت فعلها بين الفلاحين ، الذين دعوا نابليون « امبراطور الشعب الفرنسي » وراحوا يتدافعون في طريقه يحبونه ويهتفون له ، ويسيرون في ركابه ؛ ولكن شكوكه في إخلاص المدن الكبرى له ما فتئت تقض مضجعه ؛ بل إن الجيش نفسه الذي اعتمد على ولائه قد استعد للوقوف في وجهه ، فقوات مسينا تلاحقه من الخلف ، وفرق سولت تقطع عليه الطريق إلى باريس .

وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه حدثت التجربة الأولى ، إذ ما اقتربت القافلة من « لافراي » وانعطفت مع الطريق ، حتى وجدت فرقة من المشاة تقطع عليها السبيل . لقد كان الموقف حرجا وكان من المستحيل أن يتحاشى الامبراطور لقاء هؤلاء المتحيزين للقتال . عند ذلك نزل نابليون من عربته وراح يكشف الطريق بمنظاره ، بينما اندفعت جماعة من الفلاحين المرافقين له نحو الفرقة وراحوا يرفرفون لرجالها بتلك المنشورات التي يحملونها ، ولكن بدون جدوى .

وعند ما تقدم أحد الضباط إلى رئيس الفرقة وسأله عما إذا كان في نيته أن يطلق النار في وجوههم، كان جوابه أن من واجبه أن يفعل ذلك . ثم جاء على عقبه أحد الياوران يعدو على فرسه محذراً رجال الفرقة من أن الامبراطور في طريقه إليهم وأنه إذا أصيب بشر فإن فرنسا سوف تعتبرهم مسئولين عن جريمتهم، ولكن الفرقة لظمت الصمت وطفقت ترقب طلائع السرية المتقدمة، وعلى أعقابها بدا رجال الحرس الامبراطوري .

لقد كانت اللحظة رهيبة عندما أصدر قائد الفرقة الأمر لرجاله للتأهب فثبتوا حراهم في أطراف بنادقهم ؛ عند ذلك تقدم الامبراطور نحوهم راجلاً ، بينما نكس رجاله أسلحتهم حرصاً على إشاعة روح المسالمة .
في تلك اللحظة صاح أحد الضباط بصوت متهدج : « هذا هو ، أطلقوا النار ! »
ولكن صوتاً واحداً لم يجب على هذا الأمر ، إذ وقف رجال الفرقة يحدقون النظر في دهشة إلى ذلك الرجل الذي يتقدم نحوهم ، ثم إذا به يقف وإذا بهم يسمعون يتكلم :

— يا رجال الجيش الخامس ، اننى امبراطوركم ، ألا فاعلموا ذلك ... !
ولكن ما من صوت كسر هدأة ذلك السكون ؛ عند ذلك تقدم الامبراطور بضع خطوات ، ثم فتح معطفه . وعاود الكلام بصوته الهادئ :
— إذا كان بينكم من تسول له نفسه أن يقتل امبراطوره فهذا أناذا .
عند ذلك لم يعد للصمت مكان ، إذ دوى الفضاء بالهتاف :

— ليحي الامبراطور !

ثم إذا بنظام الفرقة يختل ، وإذا برجالها يتساقون إلى حيث هو يلمسون سيفه ومعطفه ، بل وحذاءه ، وهم يلوحون بخوذاتهم منصوبة على أطراف بنادقهم في الفضاء . وهكذا كان الفوز حليفه !

ثم سار الموكب إلى جرينوبل ، وفي الطريق تقدم أحد ثروة المدينة يحمل علما مثلث الألوان ومائة ألف فرنك فقبل نابليون كلتا الهديتين ، ثم جاء أحد الضباط من أنصاره يقود فرقة وانضم إلى الموكب ، حتى إذا أرخى الليل سدوله وصل المغامرون إلى أرباض جرينوبل نفسها التي كانت شوارعها تعج بالناس وكان هتافهم يؤكد ولاءهم للامبراطور . بيد أن أبواب المدينة كانت مقفلة ، وعلى أسوارها ركبت المدافع . ولكن لم يطل هذا الصراع الصامت طويلا ، إذ أن ولاء الجنود للامبراطور كان لا شك فيه ، فلم تمض ساعتان حتى فتحت الجماهير أبواب المدينة قسراً فانساب الموكب في الشوارع يحيه آلاف المناصرين .

وهكذا انقضت المرحلة الأولى من هذه المغامرة الجريئة ، وهكذا انقضى أسبوع منذ أن وطئت أقدام نابليون أرض فرنسا ، ولكن الطريق إلى باريس ليس هينا لينا كما كان الطريق إلى جرينوبل .

وفي الغد وكان من أيام الجمعة ؛ تحرك موكب الامبراطور متجها صوب ليون تصحبه جماعات الفلاحين والمناصرين القدماء وهم ينشدون الأناشيد كما تؤيده خمس فرق كاملة من الجنود ، وفي ليون نفسها كان الكونت « دارتوا » شقيق الملك يستعرض

الجيش في سكون مقبض، وعندما وصل «ماكماهون» إلى قصر بلكور صاح أحد الواقفون مجيئاً المرشال، ولكن أحداً لم يستجب لندائه عندما تكلم عن واجبهم نحو الملك. ولم يتقدم المساء حتى كانت طلائع موكب الامبراطور تقترب من المدينة، تتقدمه جماعات الفلاحين وقد عقدوا مناديلهم في أطراف عصيهم وهم يهتفون «ليحي الامبراطور!» وعندما وصلت عربة نابليون واخترقت شوارع المدينة ارتفع الصياح والهتاف والتصفيق من الجماهير المتراسة على الجانبين. وفي تلك الليلة لم تغمض عين للمدينة، بل كانت أمواج الهتافات تلاحق بعضها ببعضها منادية «ليسقط الكهنة، ليسقط النبلاء!»

وعلى رأس أربعة عشر ألف رجل عاود نابليون رحلته إلى باريس، ولم يعد بينه وبين العرش إلا جيش المرشال «ناي» المرابط في طريقه، ناي الذي وعد الملك في ثورة من ثوراته بأن يعود بالامبراطور «في قفص من حديد» وكان إذ ذاك في طريقه وهي يتحدث عن امبراطوره السابق بأنه وحش كاسر.

ولكن المرشال «ناي» لم يكن ليثق بولاء جنوده، بل انه ما كان ليثق بنفسه بعد أن رأى بعينه حماس الجماهير وسمع بأذنه ماجرى في ليون، وهو فوق ذلك لا يريد أن يوقد نار حرب أهلية. وعندما قدمت إليه نسخة من منشور الامبراطور طواها في جيبه وهو يتمم «أنهم في هذه الأيام أعجز من أن يكتبوا بمثل هذه البلاغة، نعم هكذا يجب أن يخاطب الجنود».

وهكذا كانت بلاغة نابليون سبباً في أن يفقد الملك أحد الأنصاره اشداء.

وعندما أرسل الامبراطور إلى المرشال يدعوه ويرحب به لم يجد هذا في نفسه القوة على رفض الدعوة ، لقد ذكر له نابليون بأسلوبه الساحر « انه يرحب به ترحيبا حاراً كما رحب به من قبل في ذلك الصباح بعد دخوله موسكو » انه يذكره بموسكو ! ألم يمنحه نابليون لقب « أمير موسكو » ؟ أتراه الآن يثور على ماضيه وعلى ذكريات كلها فخار وازدهار ؟ وفي وسط صفوف جيشه أعلن المرشال ناي ولاءه للامبراطور . وما كاد يفعل حتى علا هتاف الرجال يشق أجواز السماء ، ومن ثم سار إلى لقاء الامبراطور في « أوكس » .

ولم ينقض الأسبوع الثالث حتى كانت أنوار باريس تلمع من بعيد ، وفي ليلة الاثنين وعند منتصف الليل وقف رتل من العربات أمام قصر التويللري ، وعندما ظهر الملك واختفى في إحدى هذه العربات تجمعت حلقة من المتطاعمين تنظر إليه بعيون حزينة ، ثم إذا بالعربات تختفي في الظلام .

وفي مساء الغد ، وفي نحو الساعة التاسعة وصل موكب الامبراطور الظافر إلى أبواب التويللري نفسها تحيط بعربته كوكبة من الفرسان ، وعندما وقفت العربة وفتح بابها ، لم يترجل راكبها ، بل حمل على الأكتاف والأعناق في وسط بحر من رجال السياسة والمرشالات والنساء ، يتقدمه رجل يحمل إلى يده وهو يصيح : « انه انت . انه انت »

وكان نابليون مغمض العينين ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة كابتسامة أبي الهول !...



جبرت

حوادث هذه القصة في الولايات المتحدة الأمريكية ابان الحرب الأهلية التي استمرت نازها بين الولايات الشمالية التي يزعمها «لينكولن» والجنوبية التي يقودها الجنرال «لى» وقد دعا إلى انفصال هذه الولايات الجنوبية من الاتحاد .

مضى عامان والحرب الأهلية بين مد وجزر ، وكان القائدان الشماليان جرانت وبويل يزحفان جنوبا إلى «كورنث» حيث تجمعت جموع قوات الجنوب . وكان سقوط كورنث محققا في نظر المهاجرين لذلك استقر الرأى على أن تتجه قواتهما شرقا صوب شاتانوجا وهى مركز استراتيجى هام على نهر تنسى ، إذ لو تمكنت بعض هذه القوات من الزحف مخترة قلب بلاد العدو فان الطريق الشرقى سوف يفتح بابه فى وجه جيش جرانت الرئيسى .

وصلت طلائع قوات الشماليين على بعد ثلاثين ميلا من شاتانوجا ولم تبق إلا مسيرة ساعتين لاحتلال هذا المركز الحصين ، ولكن ذلك لم يتحقق ، بعد أن فشلت الخطة التى وضعت لهذا الغرض ، فلم تسقط شاتانوجا إلا بعد عامين كاملين .

أما ماهى هذه الخطة ؟ . وكيف فشلت ؟ فموضوع هذه القصة .

* * *

لم تكن شاتانوجا مدينة حصينة ، ولكن القوات الجنوبية فى ولاية

جورجيا كانت كافية لصد أى هجوم يقوم به الشماليون ، إذ لا يحتاج الأمر إلا لوقت قصير حتى تهرع آلاف من المحاربين إلى شاتانوجا على متن السكة الحديدية التى تمر بها ، فإلم تخرب هذه الشبكة الحديدية فإن الاستيلاء على شاتانوجا يكون أمراً مستحيلاً .

كانت الخطة أن يرسل الشماليون جماعة لتخريب الخط الحديدى حتى يتسنى لهم حشد قواتهم وتوطيد مركزهم ، وسرعان ما تقدم الرجل الذى اضطلع بتنفيذ هذه الخطة الحرية ؛ كان رجلاً لا يعيزه شئ عن غيره من المتطوعين المدنيين الذين زحرت بأخبارهم الحرب الأهلية ، وكان يدعى اندروز .

وقع اختيار اندروز هذا على أربعة وعشرين رجلاً من خيرة رجال ثلاث فرق من ولاية اوهايو ، وكل ما عرفه هؤلاء الرجال أنهم مكلفون بمهمة سرية ، فخلعوا عنهم أرديتهم العسكرية وتزيوا بزى أهل الجنوب ولم يسمح لهم من السلاح إلاّ بحمل مسدساتهم .

وفى السابع عشر من إبريل اجتمعوا فى خارج مدينة « شليفييل » حيث أفضى إليهم اندروز بنوع المهمة التى اختيروا من أجلها .

أصدر اندروز أمره إلى هؤلاء الرجال بأن يتفرقوا جماعات كل جماعة قوامها ثلاثة أو أربعة رجال يولون وجهتهم شطر مرتفعات كمبرلن شرقاً ، ومن ثم ينعطفون صوب الجنوب ، على أن يجتمعوا فى مساء اليوم

الثالث عند «ماريتا» في ولاية جورجيا التي تبعد نحو مئتي ميل عن مكانهم الأول . وإذا حدث واعترض طريقهم أحد فعليهم أن يتظاهروا بأنهم من أهل «كنتاكي» في طريقهم إلى معسكر الجنوبيين .

كان الجو عاصفا مطرا فعوق ذلك المتآمرين عن الوصول في الموعد المحدد ، لهذا اعتقد اندروز بأن فرقة القائد «متشل» الزاحفة سوف تتأخر عن موعدها كذلك ، وهذا حدا به إلى أن يبعث برسالة إلى رجاله ينبئهم فيه بأن الموعد المضروب قد تأجل يوما كاملا فأصبح السبت ١٢ أبريل بدلا من الجمعة . أما المتآمرون فقد ضل أحدهم طريقه ولم يصل أصلا إلى ماريتا ، ووصل اثنان منهم بعد الموعد المقرر ، وقبض على اثنين آخرين فاضطروا إلى الانضمام إلى صفوف الجنوبيين . حتى إذا كان صباح يوم السبت وصل العشرون الباقون إلى غرفة اندروز في فندق ماريتا .

جاء هؤلاء الرجال كمسافرين عاديين على سكة حديد جورجيا ، وقد أبصروا بعيونهم كيف أنه من أشق الأمور أن ينفذوا الخطة التي رسمت لهم إذ أن السكة مكتظة بالقطارات والجنود ، ولا سبيل لتحقيق بغيتهم إلا إذا اختلسوا قاطرة من محطة «بج شانتى» التي استحال إلى معسكر لقوات الجنوب . فعليهم أن يختطفوا قاطرة من معسكر يعج بمئات الجنود ويندفعوا بها إلى مسيرة مائة أو مئتين من الأميال بعد أن يحطموا كل

محاولة لاعتراضهم ، ولا شك في أن هذه مهمة تعجز عنها حفنة من الرجال .

كاد اليأس ان يتغلب عليهم حتى فكر بعضهم في النكوص ، ولكن اندروز وقف ثابتا كالصخر لا يتزعزع عن تحقيق الهدف الذى خرج من أجله فأصدر أوامره وتعليماته الأخيرة ، وأنفذ رجاله إلى المحطة الحديدية فابتاعوا تذاكر للسفر إلى مدن مختلفة تقع على الخط الحديدى إلى شاتانوجا . سافر المتآمرون فى القطار الذاهب إلى شاتانوجا كغيرهم من المسافرين حتى إذا وصلوا إلى « بج شانتى » بعد ثمانية أميال أبصروا معسكر الجنويين يتراءى من خلال غمام الصباح المبكر .

كان اليوم من أيام شهر أبريل الرطبة وقد أخذ الرذاذ المتساقط يستحيل مطراً منهمراً . وقف القطار عند « بج شانتى » للفقور ونزل عنه سائقه وملاحظه وأكثر ركابه لتناول الطعام فى المحطة وخافوه فى غير حراسة أحد . عند ذلك سنحت للمتآمرين الفرصة .

كان بين هؤلاء العشرين من كان يعمل وقادا أو سائقاً . لهذا لم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من فصل القاطرة وعربة الوقود وثلاث عربات أخرى من القطار . عند ذلك اعتلى اثنان من المتآمرين القاطرة كما تسرب البقية إلى العربات الملحقة ، ولم تكن هذه مهمة سهلة ميسورة . إذ أن القطار

يقف على نشز من الأرض ، وعلى مسيرة أقدام من القاطرة نفسها كان حارس مدججا بالسلاح يشاهد مايجرى حوله ، ولكنه لم يتنبه لحقيقة الموقف إلا بعد فوات الأوان .

وعندما أعطى اندروز الإشارة بدأت العجلات فى الدوران وأخذت القاطرة فى المسير ، وقبل أن ترتفع الأصوات ويعلو الضجيج كان القطار قد اندفع بأقصى سرعته !

كانت المشكلة الكبرى التى جابهت هؤلاء المغامرين هى تجنب القطارات القادمة من الشمال ؛ التى من بينها قطاران يعرف موعد وصولهما فبذلك أمكن تجنبهما فضلا عن قطار للبضاعة مجهول موعد قيامه ووصوله فأصبح مصدرا للخطر . لهذا قرر اندروز أن يسير بقطاره المغتصب تبعا لجدول المواعيد لكى يتجنب الاصطدام بقطار البضاعة المجهول ، حتى إذا تم له ذلك انطلق بأقصى سرعته حتى يصل إلى قنطرة « شيكا ميجا » فيشعل فيها النار ثم يمر بعد ذلك خلال شاتانوحا إلى هنتسفيل حيث يكون القائد متشيل فى انتظاره .

كانت هذه الخطة محتملة النجاح لهذا قدر أندروز أن يصل إلى هدفه بعد ظهر اليوم نفسه ، وكاد يتم ذلك لولا ما نجم عن تأخير الموعد المحدد لتنفيذ هذه الخطة .. كان يوم الجمعة - وهو اليوم الذى حدد أصلا لتنفيذ هذا التدبير - من أيام الصحو

وكانت القطارات تصل في مواعيدها المقررة ، فلما كان يوم السبت - ولعل القدر قد أراد ذلك - أصاب الاضطراب شبكة السكة الحديدية ، فوصل كل قطار بعد مواعده المقرر ، فضلا عن أن قطارين اضافيين تقرر تسيرهما فجأة ولم يكن اندروز على علم بهما ، ولو كان اندروز عارفا بذلك لما جازف بنفسه ورجاله ، مع ما عرف عنه من جرأة ولخسر التاريخ قصة مثيرة من قصص المغامرات .

كانت الجماعة تتمهل ما بين المحطات لتخرب القضبان الحديدية وتقطع الأسلاك البرقية ولتوسق ما تحتاج اليه من خشب لإشعال النار في القناطر ، وكانوا فوق ذلك يقفون على كشب من المحطات الصغيرة ليأخذوا كفايتهم من الماء والوقود . وكان اندروز يخدع الموظفين بقوله أنه من رجال الجنرال «بوريجارد» وأنه يقود قطارا للذخيرة إلى حيث يعسكر هذا القائد في كورنث . كان من سوء الحظ أن جماعة اندروز لم تكن تحمل أدوات لتخريب السكة الحديدية ، كما كان من الضروري أن تحافظ على مواعييد القطارات المقررة ، لهذا انطلقوا بقطارهم المغتصب يمرون بالقرى والمدن وهم آمنون مطمئنون وقد امتلأت صدورهم بنشوة الظفر لما أصابهم من نجاح

فلما وصلوا إلى محطة «أتواه» وجدوا قاطرة قديمة تملكها إحدى شركات الحديد وقد انبعث منها الدخان استعدادا للمسير ، فلم يتعرضوا لها إذ كانت أنظارهم منصرفة إلى قطار البضاعة المجهول ، حتى إذا وصلوا إلى «كنجزتون»

وهى على مسيرة ثلاثين ميلا من «بج شانتى» مروا بقطار ينتظر البريد على خط جانبي ، كما علموا أن قطار البضاعة المجهول الموعد على وشك الوصول . لهذا انحرفوا إلى خط ثانوى وانتظروا قدومه .

لم يمض طويل من الوقت حتى أقبل القطار ولكنه كان يحمل علما أحمر منذرا بقدوم قطار آخر على أعقابه ، فما كان من اندروز إلا أن تقدم الى سائق القطار دون تهيّب وسأله عن الدافع الى تعويق الخط الحديدى على هذا النحو ، مع أن واجبه يحتم عليه أن يسرع بقطار الذخيرة الى معسكر الجنرال بوريجارد . عند ذلك علم أندروز أن هانتسفيل قد سقطت فى يد متشل الذى اتجه بعد ذلك صوب شاتانوجا ، لهذا قرر الانفصاليون الانسحاب من هذه المدينة ؛ ولم يتردد اندروز فى أن يصدر أمرا الى السائق بالانحراف بقطاره عن الخط الرئيسى ، وقد أطاع هذا فوراً .

مرت فترة الانتظار وكأنها أجيال ، ولكن ما أن اقترب القطار الثانى حتى تبينوا أنه يحمل بدوره علما أحمر اللون فملأهم ذلك غيظا ؛ وجليّة الأمر أن القطار الأول كان أثقل من أن تجره قاطرة واحدة مما دعا الى قسمه الى شطرين ، وهكذا أخذوا فى الانتظار مرة أخرى وهم فى لهفة بادية .

كان على اندروز وصحبه أن يتصنعوا الهدوء والرزينة ، وقد أحاطت بهم ثلاثة قطارات ، وطلق المسافرون ينظرون بعين الدهشة يستطلعون أمر هذا

القطار الخفي الذي استحال من قطار للبريد إلى قطار لحمل الذخيرة ، وهكذا طال انتظارهم ساعة وخمس دقائق ، وقد حذر أندروز رجاله القابعين في العربات بأن يأخذوا حيطتهم وأن يكونوا على استعداد للقتال إذا اضطروا إلى ذلك ، أما هو فاختفى على مقربة من بناء المحطة خوفا من أن يبعث أحد المتشككين برقية يسأل فيها عن حقيقة هذا القطار الخفي ، ولكن ما أن أقبل القطار الثالث ومرت مؤخرته على الخط الجانبي حتى انطلق قطار المغامرین .

وفي هذه الأثناء كانت اشارات الإنذار قد أعطيت في « بج شانتى » وفي وسط الضجيج الذى أحدثته المفاجأة قفز رجلان من عمال السكة الحديدية إلى ظهر عربة يدوية واندفعوا بها خلف المغتصبين ، فلما وصلوا « أتواه » اكتشفوا تلك القاطرة القديمة التى كانت كما رأينا واقفة ينبعث منها الدخان استعدادا للمسير ؛ فتسلقوا القاطرة القديمة وفي صحبتهم عدد من الجنود الذين كانوا إذ ذاك قريبا من المكان ، وانطلقوا بالقاطرة خلف أندروز ورجاله إذ استنتجوا أنهم لا بد ميممين شطر كنجستون .

وما أن وصل المطاردون إلى المدينة الأخيرة حتى كانت القاطرة المفقودة قد تركت المكان قبل وصولهم بأربع دقائق ؛ وهناك وجد المطاردون أمامهم ثلاثة قطارات تعوق طريقهم ، كما وجدوا من المستحيل أن تسابق هذه القاطرة القديمة قطار أندروز السريع ، لهذا هجروا

قاطرتهم الوثيدة واعتلوا ظهر إحدى القاطرات المنتظرة وألحقوا بها عربة واحدة ، وهكذا عاودوا السباق ، وليس بينهم وبين الذين يطاردونهم إلا دقائق معدودات .

وبعد ان قطع اندروز وجماعته أربعة أميال في شمال كنجستون توقفوا في منعطف ليقصوا الأسلاك البرقية وبعد أن أتموا ذلك أخذوا يعملون التخريب في القضبان؛ ثم إذا بهم يفاجأون بصفير القطار بعد أن أكملوا جانباً من مهمتهم على وجه من السرعة ، ومن ثم تابعوا سباقهم حتى وصلوا إلى المحطة التالية وكانت « ايدرزفيل » وهناك علموا أن قطاراً سريعاً في الطريق . لقد كانت مجازفة جنونية منهم أن يتابعوا السير ، ولكن التأخير لم يكن أقل خطراً ، فانطلقوا بأقصى سرعتهم إلى المحطة التالية راجين أن يصلوا إليها قبل أن يقبل القطار السريع الذي كان متأخراً عن مواعده .

قطع القطار المسافة بين ايدرزفيل والمحطة التالية ومقدارها تسعة أميال في أقل من تسع دقائق ، وما أن دخلوا المحطة حتى كان القطار السريع قد بدأ يتحرك ، ولكن سائقة ما أن سمع الصفير المتوالى حتى توقف وبذلك فتح الطريق الجانبي للقطار الداخل ، ولكنه في الوقت نفسه منعه من التقدم ! وهكذا وجد المغامرون قطارهم جنباً إلى جنب القطار السريع ، فكان ذلك

مثارا للدهشة والتساؤل ، ولكن اندروز لم يفقد اتزانہ بل أعاد ذكر حكاية قطار الذخيرة وطلب باسم الجنرال بوريجارد أن يسمح له بالمرور في التو، وبعد شيء من التلكؤ استجاب سائق القطار السريع لرغبة اندروز وفسح له في الطريق .

أما قطار المطاردين فقد نجح في الوقت المناسب من خطر القضبان المخربة فتركه العاملان وطفقا يعدوان على الأقدام حتى التقيا بالقطار القادم من ايدرزفيل ، وهو الذي مرت به جماعة اندروز من قبل ، فعملا على أن يشترك في المطاردة فعادا به من جديد إلى ايدرزفيل وهناك استقلا القاطرة وحدها تتبعها عربة الوقود الموسوقة بالجنود . . . وعندما وصلوا الى « كالوم » ظنوا أن فريستهم قد وقعت في أيديهم ولكنهم علموا أن اندروز تركها قبل وصولهم بدقيقة أو دقيقتين .

كان نجاح المغامرين يعتمد على امكانهم احداث ثغرة أخرى في الخط الحديدي ، إذ لو تيسر ذلك لهم فان الطريق الى « شاتانوجا » تصبح مفتوحة في وجوههم ؛ فقنطرة (أوستينولا) لا تبعد إلا مسيرة دقائق معدودة فإذا تم لهم إحراقها أصبح وصولهم الى معسكر «متشل» مؤكدا .

كانت نقطة الضعف في تديرهم أنهم لا يحملون أدوات ما ، لهذا كانت مهمتهم ثقيلة مضنية تحتاج الى وقت طويل ، فما كادوا يعملون على رفع القضبان حتى طرق أسماعهم صوت قطار مطارديهم ، ولو تيسرت لهم دقيقة أخرى

لتمكنوا من أحداث فجوة في الخط ولكن المطاردين كانوا على أعقابهم فلم يستطيعوا أكثر من ثني القضبان ومن ثم عادوا الى قاطرتهم عجلين .

وهكذا بدأت مطاردة من أعجب المطاردات التي سجلها التاريخ ، فكان على أندروز أن يكسب شيئاً من الوقت حتى يتهياً له إشعال النار في قنطرة أوستينولا لهذا عمل على فصل عربة من قاطرته لتعوق الطريق في وجه المطاردين . ثم خلى سبيل العربة الثانية ولكن قاطرة المطاردين مع ذلك واصلت السياق ، لهذا لم يجد أندروز وقتاً لإشعال النار ، فعبّر القنطرة ومطاردوه على مرمى البندقية منه .

وقد تبين أن سرعة القاطرتين متساوية ، لهذا لم يأمل المطاردون في القبض على غرمائهم ، فأصبح مهمهم أن يمنعوا كل محاولة من جانبهم لتخريب الخط الحديدي أو لأخذ حاجتهم من الماء والوقود . كانت القاطرتان منطلقتين بأقصى سرعة ممكنة وقد تمكن أندروز بالفعل من الاحتفاظ بفرق المسافة ، ولكنه كان يفقد هذا الكسب بتوقفه من وقت لوقت ليقطع الأسلاك البرقية حتى لا يرسل إنذار إلى المحطات القادمة ؛ أما تخريب الخط الحديدي نفسه فلم يكن لديه وقت لتحقيقه .

حاول أندروز كل ما يستطيع لتعويق مواصلات العدو ، وكان عليه أن يفعل المستحيل حتى يصل في الوقت المناسب لتخريب قناطر (شيكاموجا) . ثم إنه أخلى سبيل العربة الثالثة وثبتها ببعض العوارض الخشبية لتعوق اندفاع المطاردين ، وقد نجح بالفعل مرتين في جلب ما كان يحتاج إليه من ماء ووقود . وقد كاد ينجح

مرة في رفع أحد القضبان حتى أصبح المطاردون على غير بعيد منه .
كان ذلك اليوم مطرا نديا وكانت المياه تنهمر انهمارا على تقيض ما كان
عليه الأمس من شمس مشرقة وريح عالية يجود فيها اشعال النار ، فكان من
العسير على هؤلاء المغامرين تحقيق أمنيتهن ، لأن اشعال النار في قنطرة في مثل
هذا اليوم النادى يحتاج إلى الكثير من الوقت والوقود .

وهكذا استمر هذا السباق العجيب ميلا بعد ميل ، وقد انطلقت القاطرتان
تجوس خلال برية نائمة وقرى منسية ومحطات مهجورة ، وفوق جسور ممتدة
خلف منحنيات خطيرة لم تألف مثل هذه السرعة ، وكانت آمال المغامرين
تعود وتشرق إذا نظروا خلفهم فوجدوا مطارديهم قد اختفوا وراء أحد
هذه الأركان ، حتى إذا استقام الخط الحديدي لحوا الدخان المتصاعد ورنّ في
أذانهم صفير قطار مطارديهم .

في مثل هذه المحن تمر الدقائق وكأنها ساعات وئيدة ؛ وإذا كانت شجاعة
جماعة اندروز فائقة فإن مطارديهم لم يكونوا أقل همة ؛ لقد كانت حياتهم ، معلقة
في ميزان القدر في كل لحظة من هذه اللحظات إذ لو اعترض طريق المطاردين
قضيبي منزوع لم يكشف السائق مكانه في الوقت المناسب لقضى على
القطار وراكبيه ولما نجوا إلا بأعجوبة ؛ وكم من مرة فقد الجنود أعصابهم
وتسرب اليأس إلى نفوسهم لولا تصميم قائدهم .

رأى بعض جماعة « أندروز » أن يختبئوا في منعطف الطريق حتى إذا أقبل قطار المطاردين هاجوهم بمسدساتهم وهم على مسافة قصيرة ، ولا ريب في أن هذه الخطة كانت محتملة النجاح لولا أن أندروز كان مافتيء متعلقا بأمله في تخريب القنطرة ، وكان خوفه من انتشار خبره بين اهل القرى التى يمر بها سبباجعله يعتمد اعتمادا كلياً على السرعة . فلما وصل قريبا من مدينة « دلتون » توقف ثانية واقتلع الأسلاك وحطم ما أمكن تحطيمه من الخط الحديدى .

وعلى مرأى من هذا كله كانت فرقة من جيش الانفصاليين معسكرة في هذا المكان ، ولكن أحداً من رجالها لم يرفع رأسه متسائلا ، ظنا منه أن ذلك كان جزءاً من الأعمال العسكرية نفسها . وقد حدث أن المطاردين أرسلوا انذاراً برقيا إلى « شاتانوجا » ولكن فقرة واحدة منه وصلت إليها وذلك قبل أن يُعمل أندروز التقطيع فى الأسلاك . بيد أن ما كان يزعج أندروز هو قلة الوقود فكان عليه أن يتوقف فترة كافية من الوقت لأخذ حاجته من الخشب والماء ، وإلا كان عرضة لأن يتوقف أبدا .

وبعد أن ترك المغامرون « دلتون » وراءهم قاموا بمحاولة أخيرة لفك أحد القضبان ولكنهم عجزوا عن ذلك نظرا لخلو أيديهم من أدوات التدمير اللهم إلا من قطعة حديد ونظراً لاقتراب مطارديهم . وهكذا تابعوا سباقهم إلى نفق قريب فلم يتيسر لهم الوقت لتخريبه ؛ عند ذلك أحس أندروز بخطورة موقفه

إذ لم يبق في يده سوى الورقة الأخيرة .

انطلق اندروز بأقصى سرعة استطاعتها القاطرة فتمكن بذلك من كسب شيء من الوقت - حتى إذا اقترب من إحدى القناطر الخشبية المقامة في طريقه أشعل النار في عربة الوقود فلما توسط القنطرة أخلى سبيلها وتركها حيث هي لكي تمتد النار منها إلى القنطرة نفسها فتقطع الطريق على المطاردين ، ولكن الحيلة لم تنجح لأن الخشب كان نديا والمطر لم ينقطع والمطاردين كانوا على أعقاب أعدائهم ، فتيسر لهم في الوقت المناسب استخلاص العربة المحترقة ودفعها أمامهم بعيدا عن القنطرة .

لقد بدأ الأمل يتضاءل في عيون أندروز ورفاقه ؛ فالقاطرة كاد ينضب معينها من الوقود وليس أمامها إلا بضع دقائق تتوقف بعدها فتصبح الطريق مفتوحة لا يعوقها عائق أمام المطاردين ؛ لهذا لم يكن بد من هجر القاطرة جماعة ومحاولة الهرب على الأقدام وكان من حسن الرأي أن يترك أندروز ورفاقه القاطرة محاولين الاختفاء في بعض المناطق الجبلية التي لا يمكن الوصول إليها إلا على ظهور الخيل والتي لا تربطها بغيرها شبكة الأسلاك البرقية ولكن اندروز رأى خلاف ذلك فاقترح الهرب متفرقين ، وعلى هذا النحو انتهت هذه المطاردة العجيبة

لقد كانت الخاتمة مأساة تشير الألم ، إذ كان الهاربون يجهلون طبيعة البلاد التي نزلوا فيها بعيدين عن أصدقائهم وأنصارهم ، لهذا كان مصيرهم الأسر . فألقى القبض على أكثرهم في اليوم الأول ، ولم يمض أسبوع حتى كانوا جميعا سوى اثنين منهم في قبضة قوات الانفصاليين .

ثم قدموا للمحاكمة العسكرية بتهمة التجسس اذ كانوا يرتدون الملابس المدنية ، فحكم على أندروز وسبعة من رفاقه بالاعدام ونفذ فيهم على الفور . وقبل أن يمتد هذا القصاص إلى بقيتهم كانت طلائع الاتحاديين تتقدم صوبهم فتمكن بعضهم من الهرب ، كما أنقذت حياة من بقى منهم في قبضة الانفصاليين عند ما تبادل الفريقان أسرى الحرب من المعسكرين ، وهكذا أسدل الستار على هذا السباق الفذ .



أسیر
الذراولیش

اثنتا عشرة سنة وسلاطين^(١) حاكم دارفور السابق أسيراً في قبضة الخليفة عبد الله التعايشي ، لهذا فككت أغلاله الثقيلة ومنح شيئاً من الحرية ، بل ان الخليفة قرب به اليه بعد أن أعلن اعتناق الإسلام ؛ وكان يقضى أكثر وقته في الرحبة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ، وبالرغم مما كان عليه الخليفة من حذر وريبة كان يدعو سلاطين من حين لآخر ليجالسه في المسجد الكبير أو ليصبحه في بعض الرحلات الداخلية .

لم يكن هذا الاستسلام ليزعزع يقين التعايشي من أن سلاطين موطنه العزم على الفرار إذا أتيجت له الفرصة ، لهذا أمر أن تقيد حركاته ؛ فكان على سلاطين أن يحضر صلاة الفجر في كل يوم حتى يراه بعينه . ومنذ ان وقع سلاطين في الأسر سعى أهله جهدهم للوصول الى معرفة أخباره والعمل على تخليصه إذا تيسر ذلك ، ولكن الأعوام توالى دون أن تتحقق هذه الأمنية ، مع مبلغ ما بذل من مال وما قام به قنصل النمسا في مصر من محاولات ؛ وقد تمكن القنصل

(١) روداف سلاطين ضابط عسوى من عائلة عريقة دخل في خدمة الحكومة المصرية في عام ١٨٧٨ وعين حاكماً لمديرية دارفور وتوفر على دراسة شؤون السودان حتى أصبح ثقة فيه وفي عام ١٨٨٤ أسرته جيوش المهدي حتى تمكن من الفرار في عام ١٨٩٥ .

من أن يبعث إلى سلاطين بجانب من الأموال التي وضعتها أسرته تحت تصرفه ، ولكن سلاطين كان شديد الحذر في صرفها حتى لا تتطرق الريبة إليه ، وحتى لا يقع الرسل وهم من الأعراب في قبضة عيون التعاشي ، وكان سلاطين في حاجة إلى مؤاخذتهم لكي يستنجد بهم إذا ما لاحت له فرصة للهرب ، لهذا لم يشك من وصول هذه الأموال ناقصة إليه . .

* * *

في أحد أيام شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل إلى أم درمان من مصر الشيخ « بكار أبو زبيبة » وهو من عرب العبادية ، وعند ما التقى به سلاطين في ساحة المسجد الكبير أسرَّ العبادي في أذنه بأنه موفد لمساعدته ؛ فاتفقا على المقابلة في الغد بعد صلاة المغرب . فلما كان اليوم التالي اختلصا في مكان منزو من المسجد وهناك تسلم سلاطين علبة من الصفيح ملأى بالبن وفي قاعها المزدوج ورقة من أحد رجال الجيش في مصر يطلب فيها من سلاطين أن يولى بكار ثقته لأنه أوكل إليه أمر إنقاذه ، ولكن سلاطين عند ما ذهب للموعد المضروب لم يجد أحدا واتضح له فيما بعد أن الأعراب الذين أوكل إليهم الأمر أحسوا بخطورة المهمة فعادوا من حيث أتوا .

مضى عام بأسره وفي خلاله فشلت خطتان لهرب سلاطين ومع ذلك لم يدع اليأس يستولى على نفسه ، وإن كان من المجازفة أن يتعدد الأشخاص

الذين يحملون سر هذه المحاولات لأن عيون التعايشي تحيط بسلاطين في كل مكان . . . وفي أحد أيام شهر يناير ١٨٩٥ مر سلاطين على غير انتظار برجل يدعى محمد ، وهو ابن عم اصدق له هو « عبد الرحمن واد هرون » وكان قد أولاه ثقته واخلاصه .

جاء محمد هذا من بربر بعد أن أعد العدة لفرار سلاطين ، فاشترى الجمال والزاد وأحضر المرشدين لهذه الرحلة واختار الأسبوع الأخير من الشهر العربي لتنفيذها ؛ وفي صباح اليوم الذي تقرر فيه الهرب ، ادعى سلاطين المرض ووقف على باب الخليفة كعادته وظهر بمظهر الضعيف العليل ، ثم طلب من رئيس حرس الخليفة الإذن له بالتغيب عن صلاة الفجر ، حتى لا يثير غيابه شكوك التعايشي فيبعث في التو للسؤال عنه ، ولما لم يبتعد طويلا عن أم درمان .

وضع سلاطين خطة محبوكة الأطراف ؛ فقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم جمع خدمه وطلب منهم أن يقسموا على الاحتفاظ بسر ماينوى ذكره لهم ، فروى لهم أن رسولا قدم من مصر يحمل اليه الشيء الكثير من الهدايا والنقود والساعات وغيرها من الطرف ، ولما كان هذا الرسول قد جاء سراً بغير علم الخليفة فقد رأي من الصواب أن يجعل أمره مجهولا ، لهذا بيت العزم على أن يزوره متخفيا في صباح اليوم التالي . فإذا ما جاء أحد

رجال الحرس في الصباح للسؤال عنه ، فعليهم أن يذكروا له أن سلاطين قضى ليلة طويلة يعاني فيها آلام المرض مما دعاه للذهاب ليلاً في صحبة خادمه احمد إلى رجل يشتغل بالتطبيب لا يعرفون مكانه .

وإمعانا في تضليل خدمه ، طلب سلاطين من خادمه « احمد » هذا أن ينتظره في صباح الغد في طرف المدينة الشمالى ، ومعه بغلته الخاصة ، على أن لا يجعل القلق يستولى على نفسه إذا ما تأخر عن الوصول في الموعد المضروب نظراً لخطورة تلك المقابلة ، وكان الهدف الذى يرمى اليه سلاطين هو تأجيل موعد إذاعة سر اختفائه بعض الوقت ؛ ولما كان من المستحيل أن يبقى أمر هربه مكتوماً أمداً طويلاً ، فقد اختلق حكاية البغلة لكى يجعل خادمه احمد بعيداً عن منزله ، حتى إذا ذاع أمر اختفائه من البيت راحوا يبحثون عن خادمه وبغلته ، وهذا بطبيعته يستغرق الشئ الكثير من الوقت .

صلى سلاطين العصر ثم عاد إلى منزله وهناك جمع خدمه مرة أخرى وشدد عليهم فى ضرورة الاحتفاظ بالسـر ، ثم نفح كل واحد منهم شيئاً من المال ووعدهم بنصيبهم من الهدايا التى أحضرها ذلك الرسول الموهوم . ثم انه صلى صلاة العشاء فى المسجد الكبير حتى يراه الخليفة رأى العين قبل أن يأوى إلى فراشه ، فلما شمل السكون المسجد ارتدى عباءة صوفية ليتقى بها البرد وحمل فروة الصلاة وسار حذرا إلى طرف المدينة الشمالى .

لم يكد يسير طويلا حتى سمع همسا فظن أن أحد جواسيس التعاشي قد كشف أمره ولكن سرعان ما برز من الظلام صديقه محمد ، الذي قام بتدبير خطة الهرب وهو يقود حمارا امتطاه سلاطين وسار به حتى انتهى إلى بعض أطراف المدينة ، وكانت الريح شمالية باردة أجبرت الناس على الاستكنان في بيوتهم ، فلم يصادف الرجلان أحدا في الطريق ؛ وعند بيت خرب تمهلا قليلا حتى خرج عليهم أعرابي يقود جملا ، فأردف الأعرابي سلاطين خلفه وسارا حثيثا ساعة حتى انتهى بهما السرى إلى بقعة اختبأ تحت أشجارها عدد من الجمال وانضم اليهما دليل ثان ، وهكذا واصلت الجماعة المسير الليل بأسره ، ولم يعق القافلة عائق سوى شدة الظلام وانتشار الأشواك البرية في الطريق .

انبلج منوء الفجر الأول وأخذ الأسير يتبين وجهي صاحبيه فعرف أنهما من سكان جبال جيليف ؛ ثم انبسط الوادي أمامهما — اربين فساعد ذلك الجمال على العدو دون توقف للراحة مع ما في ذلك من خطر على مواصلة الرحلة . . . حتى إذا انتصف النهار لاح لهم في الأفق فارسان وقافلة من الجمال تسير في نفس الاتجاه ، لهذا رأوا أن يغيروا طريقهم فانعطفوا شرقا ولكن لم تسر الجماعة طويلا حتى بدا لهم جندي راكب من جنود الخليفة يتجه نحوهم مسرعا .

رأى أحد الدليلين أن يخاطر بنفسه ويلتقي بالفارس في منتصف الطريق ، بينما

يتابع سلاطين ورفيقه السير دون توقف ، فبذلك يعوقه عن مطاردة الأسير الهارب ، ولم يمض طویل حتى عاد « حامد » وهو أحد الدليين إلى زميليه وذكر لهما أن الفارس صديق من أصدقائه ، وقد طلب منه باسم الصداقة أن يحتفظ بالسر ، وفي نظير ذلك منحه عشرين ريالاً قبلها عن طيب خاطر .

ولم تنزل القافلة للراحة حتى جاوزوا جبال « هويجنى » وهى تبعد مسيرة يوم عن شاطئ النيل ، وكانت الشمس قد غربت ؛ وهكذا مضت إحدى وعشرون ساعة منذ أن تركوا أم درمان فى مساء الأمس ؛ ولا ريب فى أن هذا السفر المتواصل قد أنهك الجمال فلم يجدوا بدا من الراحة ساعة كاملة ، تناولوا فى خلالها شيئاً من الخبز والبلح وبعض جرعات من الماء ؛ ولما جاء دور الجمال امتنعت عن أن تأكل شيئاً بسبب ما انتابها من شدة التعب .

كان أول ما جال بخاطر « حامد » هو أن أحد فقهاء الخليفة قد رقى الجمال الهاربة حتى يمنعها من متابعة السير ، لهذا فكر فى استخدام ترياق يفسد تلك المحاولة ، وكان ذلك بأن أوقد ناراً وألقى فيها بشيء من البخور وأخذ يطوف بها حول الجمال وهو يتمم بكلمات غير مسموعة ، ولكن الترياق لم يفعل شيئاً إذ أصرت الجمال على عدم الأكل ، فلم يكن بد من إعدادها للركوب خشية أن يضيع الوقت ؛ فلما انتصبت على سوقها امتنعت عن العدو وسارت بخطى وثيدة ، فكان ذلك أخف الضررين .

بدا إعياء الجمال الثلاثة واضحا عند الظهيرة حتى أصبح من المستحيل أن تواصل المسير ، لهذا التجأ الرجال إلى ظل شجرة باسقة واختبأوا بقية ذلك اليوم حتى أقبلت العشية ، فكانت الجمال قد أخذت قسطها من الراحة فواصلوا سيرهم حتى اتفلق فجر الغد، فوصلوا إلى سفوح جبال «جيليف» وهو مكان منقطع لا يطرقة مسافر ، ولكن الدليلين كانا يعرفانه تمام المعرفة ويعرفان ممراته ومسالكه الجبلية الوعرة التي لا يمكن للجمال أن تسير فيها ، لهذا نزل الثلاثة عن جمالهم وساقوها خلفهم حتى وصلوا إلى نبع يتفجر بين هذه الصخور السوداء وهناك تناولوا طعامهم من الخبز والتمر ؛ ثم قر قرارهم على أن يذهب أحد الدليلين إلى المكان الذي ينتظر فيه أصدقاء سلاطين وهو على مسافة تستغرق يومين كاملين ، حتى يعود إليهم بجمال قوية تتمكن من مواصلة السير دون توقف .

أما الدليل الثاني فرأى أن يذهب إلى شيخ القبيلة المجاورة وهو من أنسابه ويعيش في منزل على سفح ذلك التل ؛ إذ من الخير أن يعلم الشيخ عن وجود هذا الغريب حتى لا يصيبه مكروه ، وعلى ذلك انفرد سلاطين بنفسه في هذا القفر المهجور وقضى الليل تساوره المخاوف والأوهام ، حتى إذا أقبل الفجر سمع وقع أقدام مقتربة فإذا بالقدام « حامد » الدليل ، الذي طمأنه بأن نسيبه الشيخ ابراهيم يرحب به ، كما وعده بإخفاء سره .

بعد الظهر بقليل سمع سلاطين صوت ديب خلفه فأدار وجهه فإذا
برجل يتسلق المنحدر متجها صوبه فأثار هذا المنظر هواجسه ولكن حامد هون
عليه الأمر إذ أن القادم لابد وأن يكون أحد رجال قبيلته ، لهذا ترك سلاطين
وأسرع نحو قمة التل واختفى برهة ثم عاد برفقة ذلك الغريب وهو باسم
الشعر وقدمه إلى سلاطين على أنه أحد أنسبائه الأقربين ويدعى « واد فيض »
وذكر لهما الغريب في صراحة أنه جاء أصلا للفتك بسلاطين لولا أن قريبه اكتشف
أمره ؛ وذلك أنه كان يرعى جماله وأغنامه فساقتها إلى الصخور القريبة ليجث
عن ماء للشرب وهناك شاهد آثار جمل فتعقبها ، ثم اكتشف آثار قدمي
رجل أبيض فتحقق من أن رجلا غريبا دخل تلك الأرض واختبأ بين صخورها
رغبة في الاختفاء من عدوله ، فبيت العزم على أن يعود ليلا وينقض على هذا
الغريب ويريجه من الدنيا ، وكاد يتم ذلك لولا أن قابل قريبه حامد .

اقترح « واد فيض » على الأسير الهارب أن يلجأ إلى كهف بين الصخور ،
بينما يعكف حامد على مراقبة الطريق من قمة أحد التلال ، وفي المساء عاد
واد فيض يحمل قربة من جلد الغزال ملاءى باللبن وشيئا من خبز الذرة فكان
ذلك هدية قريبه إليه . وهكذا قضى الرجلان ثلاثة أيام في هذا المكان ما بين
المفارة التي يبيتان فيها ورأس التل حيث يقوم حامد بمراقبة الطريق .

حتى إذا كان يوم الخميس شاهد حامد رجلا مقبلا نحوهما ف جذب سلاطين

بندقته استعداداً للطوارئ ، ولكنه ما كان في حاجة إلى ذلك لأن القادم كان دليله الأول الذى عاد بحملين جديدين قوين . ولم تكد شمس ذلك اليوم تميل للغروب حتى كانت الجمال الثلاثة بأحمالها تسير شرقاً في طريق وعرة ، ولم تتوقف حتى بدأ يفتح نور الفجر ، وهكذا دخلت القافلة في منطقة عامرة مجاورة لشاطئ النيل فبذلك تضاعف الخطر إذ من العسير أن يتحاشى المسافر الاتصال بالناس ؛ وهذا ما حدث عند الظهيرة إذ شاهد الهاربون قطعاً من الأغنام يقوده بعض الرعاة فاضطروا إلى تغيير طريقهم بعيداً عن ذلك المرعى ، ومع ذلك فرأى أحد الدليلين من الحكمة أن يسير إلى الرعاة منفرداً ليستقصى الأخبار فاطمأن إلى أن هرب سلاطين لم ينتشر بعد .

وقبل أن تغرب الشمس بدا من بعيد نهر النيل وكأنه خيط فضى يلمع في رقعة قاتمة اللون فلم يتمهلوا بل عاودوا المسير حتى انتهوا إلى مكان بين تلأل حجرية يطل على النهر وهناك أناخوا جماهم وجلسوا يأكلون بشهية إذ بدت آمال سلاطين في النجاة تتحقق . وهناك تركه صديقه وأنحدر إلى حيث أولئك الأصدقاء الذين دبروا أمر هذه الرحلة .

وهكذا قضى سلاطين ليلته منفرداً في تلك البرية وقد عادت إليه هواجسه ووساوسه فلم تغمض له عين حتى مطلع الفجر ، عند ذلك عاد « حامد » ليخبر سلاطين بأنه لم يجد من كان يبحث عنهم لهذا ترك زميله الآخر يستقصى عن

بعض معارفه لكى ييسروا لهم عبور النهر . ولما كان هذا المكان مما يرتاده الناس والرعاة كثيرا حفر سلاطين حفرة فى الرمل واختبأ فيها طول نهاره حتى لا تقع عليه عين أحد ، وأخذ فى محبسه هذا يستعرض حياة الأسر الطويلة التى قضاها فى صحبة الدراويش ويناجى آماله التى كادت أن تتحقق لولا مامنى به من فشل وهو فى المرحلة الأخيرة من مغامرته .

وبعد ظهر ذلك اليوم لمع الأمل من جديد فى نفس سلاطين عندما عاد حامد ليخبره بأن زميله قد وجد من يقوم بمساعدته فى عبور النيل إلى الضفة الأخرى حيث ينتظره هناك «أحمد واد عبد الله» وبهذا انتهت مهمة الدليلين حامد ورفيقه فعادا من حيث جاءا ، بعد أن قدم سلاطين لهما جزيل شكره وعظيم امتنانه كما قدم لهما جملا ليعودا به .

علم سلاطين من زميليه بأن التعايشى صدرت أوامره منذ ثلاثة أيام بمراقبة الطرق والبحث عنه لهذا كان عليه أن يعمن فى التخفى حتى لا يشير حوله الشكوك . سارت الجماعة نحواً من ساعتين حتى انتهوا إلى ضفة النهر وهناك أناخوا الجملين فى رفق وهدوء حتى لا ترهف إليهم الأسماع وبعد قليل أقبل «أحمد واد عبد الله» وأسرع وضم سلاطين إلى صدره وعانقه طويلا ، وأمر رجاله بنفخ قربتين فارغتين ربطتا حول عنق الجملين وهكذا عبر الجمل النهر سباحة إلى ضفته الأخرى . أما سلاطين ومضيفه فركبا قاربا صغيرا عبر بهما الماء حتى إذا وصل إلى ضفته الأخرى ثقب

قاعه فغاص في الماء حتى تضيع معالم هذه الرحلة .

قضى سلاطين في هذا المكان يومه حتى إذا انتصف الليل قدم له أحمد واد عبد الله مرشدين جديدين من أقربائه يصحبانه إلى الشيخ « حامد قضاي » من زعماء القبائل الخاضعين للحكومة المصرية وهو الذي وكل إليه أمر مساعدته للوصول إلى أسوان . وعند شروق الشمس وجد الجماعة أنفسهم في مكان يدعى « وادي الحمير » لكثرة ما تسكنه من الحمير البرية مع خلوه من النبات وكانت الرمال ممتدة في كل ناحية ؛ فمضى يومان كاملان دون أن تمر القافلة بشجرة تنقياً ظلها حتى وصلت إلى تلال « نوراني » ومن هناك انحدرت إلى واد ممرع ولكنه خال من الرعاة فأناخوا جماهم للراحة والشرب كما مائت القراب بالماء العذب من بئر حلزونية ينزل إليها بدرجات منحوتة في الحجر ، ولكنهم لم ينتظروا طويلا عندها خشية الواردين عليها ، فضلا عن أن الدليلين الجديدين كانا شديدي التذمر والإهمال حتى فقد سلاطين صندوقه وحذاه .

وفي صباح اليوم التالي وهو الخميس وصلت القافلة إلى أحراش أبي حمد وقد فضل سلاطين الاختباء عن الأنظار على الرغم من عداة أهلها للخليفة وأتباعه ؛ وعند العصر عاود الرجال التذمر وأصرا على الرجوع خوفا من أن يشي أحد بهما إلى التعايشي ، فلم ير سلاطين مندوحة من الموافقة بعد أن سلم أمره إلى رجل من قبيلة أماراني يدعى (حامد جرهوش) وهو شيخ في الخمسين من عمره وقد أبدى

استعداده لمراقبة سلاطين نظير جعل قدره مائة وعشرون ريالاً . وعندما خيم
الظلام أقبل حامد جرهوش كوعده ، وبذلك بدأ سلاطين مرحلة جديدة من
مراحل هربه .

بعد يومين وصل الرجلان إلى بئر تدعى «شوف العين» وهي قليلة الماء وعلى
مقربة منها جلس الأعرابي يصنع الخبز ، فجمع شيئاً من الحصى وأوقد فوقه النار ثم
أخذ ينزع الجمر من الحجارة الملتهبة ويضع فوقها أقرصاً من عجينة الذرة ويقلبها بعصا
صغيرة حتى تنضج . ثم واصلوا بعد ذلك السير حتى انتهوا إلى منحدرات جبال «عتابي»
التي تمتد ما بين البحر الأحمر والنيل والتي تتفرع منها أودية مغطاة بالغابات تسكنها
قبيلة العبابدة . ومع أن سلاطين ودليله قد اجتازا الحدود التي يسيطر عليها التعايشي
إلا أن حامد أصر على أن يسير بعيداً عن عيون الناس خوفاً من أن ينقل هؤلاء
أخباره إلى السودان فينتقم منه أتباع التعايشي .

ومع أن «حامد جرهوش» كان شيخاً ضعيفاً إلا أن عزيمته كانت كعزيمة الشباب
وروحه الوثابة كروح الفتيان ، ولا شك في أن السير المتواصل واضطراب
أوقات الطعام وشدة البرد قد أثرت مجتمعة في صحة هذا الشيخ حتى اضطرب سلاطين
إلى أن يقدم له عباؤه إشفاقاً عليه ، بل أعطاه جملة رحمة بهزأه ، وراح سلاطين
يسير عارى القدمين فوق الأحجار أربعة أيام بعد أن فقد نعله في رحلته الأخيرة

من أبي حمد، وكانت رغبة سلاطين في الوصول إلى أسوان جعلته مستعداً للتضحية
مهما كان نوعها .

خيل لسلاطين أن الجمل بدوره يتآمر عليه في اللحظة الأخيرة مع أن من
البديهي أن السير المتواصل دون راحة كافية قدفت في صلابته ، ومما زاد الطين بلة
أن اصطدمت قدم الجمل الأمامية بحجر مدبب فاصيب بجرح أخذ في الاتساع
حتى أضحي خطراً على مواصلة الرحلة ؛ فاضطر سلاطين إلى أن يقطع جانبا من
حزامه الصوفي ليلف به الجرح على طريقة أهل دارفور الذين كانوا يستعملون
الجلد بدلا من الصوف في مثل هذه الحالة ، وكان عليه أن يغير اللقافة مره كل
يوم .

وفي صباح يوم السبت ١٦ مارس ١٨٩٥ وصل الأسير الشارد إلى المرتفعات
التي تحيط بأسوان ، فما أن انحدر إلى سفوحها المقابلة حتى بدأ النيل العظيم يجري
صافيا بين المزارع النضيرة ، وبدت مدينة أسوان بأبنيتها وقبابها وماآذنها كالحمامة
البيضاء جاثمة على ضفته ، ولم تكد تقع عين سلاطين على معالم المدينة الأولى بعد
فك عقاله ، حتى غمرته موجة من الفرح والسرور ، وراح يدعو الله شاكرًا
منته لتحقيق أمل كان كبعض الأحلام .

وعندما وصل سلاطين إلى أسوان ذهب إلى معسكر الجيش الم رابط في المدينة
فاحتقن به ضباطه احتفاء عظيمًا ، وقدمت إليه ملابس أوروبية فبدا في زيه

الجديد بعد اثنتى عشرة سنة لا يلبس خلالها إلا (المرقمية) التي كان يرتديها الدراويش في ذلك الحين . وكان أول ما فعله سلاطين أن دفع مبلغ المائة والعشرين ريالاً إلى دليله « حامد جرهوش » فضلاً عن ما قدمه إليه من الهدايا والملابس والأسلحة ، فتقبلها الشيخ وعاد إلى قبيلته فرحاً مسروراً .

وفي اليوم التالي كانت باخرة البريد التي تسافر ما بين أسوان وجرجا (حيث كان ينتهى الخط الحديدى) على أهبة الرحيل، فأقلت سلاطين على نفقات فرقة موسيقية عزفت النشيد النمساوى إكراماً له مختلطاً بهتاف المودعين. ولعل خبر انقاز سلاطين قد انتشر كالبرق فترامى إلى مسامع أهله في أوربا، لأنه عندما وصل الأقصر وجد برقية من شقيقاته في « فيينا » تهنيه بعودة الحرية .

وفي جرجا أقله القطار إلى القاهرة، فوصل في الصباح ؛ وكانت في انتظاره الجالية النمساوية وبعض ضباط الجيش، ونزل ضيفاً على قنصل النمسا الذى كان له الفضل في تدبير فراره .

بعد أيام تشرف سلاطين بمقابلة سمو الخديو عباس الذى أنعم عليه برتبة الباشوية . وهكذا ارتقى سلاطين فى مدى ستة عشر عاماً درجات السلك العسكرى المصرى، حتى وصل إلى أرفع مراتبه، ولعل أسره وحكاية هربه كانتا أروع صورة فى تاريخه .

وإذا كانت المصائب تتمخض عن خير فإن ما قاساه سلاطين في أسره وهربه
قد جعل منه بطلا ، وخلد له مؤلفا أصبح من عمد كتب التاريخ والمغامرات ،
ذلك هو كتاب « السيف والنار » .



في

مساء أحد أيام شهر اغسطس ١٩١٤ ، ولم يمض على إعلان الحرب ثلاثة أسابيع ، كنت أربط في بعض الخنادق عند مونز . ولم يكن في صحتي إلا عدد يسير من الجنود أكثرهم من الجرحى ، فلم يكذب نعيم الظلام حتى أحاطت بنا قوات ألمانية كبيرة ، ألقت علينا القبض وساقتنا في اليوم التالي أسرى حرب إلى ألمانيا* .

وصلنا «لوفان» في مساء ٢٦ اغسطس ، فوجدنا النار مشتعلة في أكثر من نصف المدينة ، فقضينا الليلة فيها ؛ وفي الصباح عاودنا المسير شرقا حتى وصلنا إلى « سنلاجن » في وستفاليا ، بعد رحلة دامت اثنين وسبعين ساعة . وهكذا انتقلنا من معسكر إلى معسكر حتى انتهى بنا المطاف إلى « بورج » في جوار مدينة مجدبرج ، وكان ذلك في منتصف شهر ديسمبر . و « بورج » هذه بلدة صغيرة تبعد ستماية كيلو متر عن الحدود السويسرية وأربعمائة من الحدود الهولندية ، أما الأسرى فكانوا خليطا من الروس والبلجيكي والفرنسيين ، ولم يكن البريطانيون إلا أقلية ضئيلة بالنسبة إليهم .

* هذه قصة ضابطين بريطانيين وقعا في الأسر الألماني إبان الحرب العظمى الأولى ، وحاولا الهرب ، وهي منقولة عن مذكرات أحد الضابطين الكابتن كارترايت ، أما الآخر فهو الذي يرد ذكره في القصة باسم الميجر هاريسون .

ولما حل العام الجديد بدأنا نؤمن بأن الحرب ليست حكاية شهرين أو ثلاثة وأنها قد تطول إلى أبعد من ذلك بكثير .

ومنذ هذا التاريخ أخذت فكرة الهرب تستولى على عقول البعض منا ، وما ان انتصف شهر فبراير حتى كنت قد درست مع أحد رفاقي خطة للفرار . وكنا نظن أن نجاح مثل هذه المحاولة ليس عسيرا ؛ فإذا أقبلت أيام الدفء نولى وجوهنا شطر الحدود الهولندية سيرا على الأقدام ، على أن نختفى عن الأنظار نهائياً ونعاود المسير ليلاً ؛ ولم تفكر في أن نجازف بالسفر بالقطار ، إذ كنا نجهل اللغة الألمانية .

كان أول ما فعلنا أن درسنا طريق الهرب ، فاشترينا نسخة قديمة من دليل « بديكر » لشمال ألمانيا من بائع للكتب كان يسمح له إذ ذاك بزيارة المعسكر ، فعرفنا من بعض خرائطه أن طريقنا ليس شاقاً ، وأن كثيراً من الأحرار والغابات تكتمفه . ومن هذا التاريخ أخذنا في جمع زخيرتنا من البسكويت والشوكولاته والحساء المجففة ، وغير ذلك من الأطعمة المحفوظة التي بدأت ترسل إلينا من إنجلترا عازمين على أن نحمل معنا عند الهرب ما يكفي شهراً لطعامنا ؛ وفضلاً عن ذلك فقد رأينا أن نعتمد على ما نختلسه من الجذور والفاكهة في الطريق ، كما وجدنا من الميسور أن نوقد ناراً للطهي دون أن يكتشف أمرنا . كان زميلي في هذه الرحلة السرية الميجر « هاريسون » من الفرقة الإيرلندية ،

وقد اجتمع رأينا على الهرب سويا بطريق الصدفة، إذ كنت في أحد الأيام أقلد «بطاقة» المعسكر - وهي التي تقدم من العمال والمتعهدين الذين يتصل عملهم بالمعسكر إلى الحارس عند الخروج - كنت أقلد هذه البطاقة دون أن أعزم بشأنها على أمر معين، لأنني كنت واثقاً من أن أية محاولة للهرب يجب أن تكون من باب المعسكر الرئيسي. وكانت أول مشكلة اعترضت تنفيذ هذه الخطة هي استحالة الاختفاء في أرض الأعداء خلال رحلة تقطع فيها مئات الأميال دون أن تقابل مخلوقاً أو نضطر لشراء طعام أو نحوه مع جهل بلغة هذه البلاد. ولكن الحقيقة أن كل محاولات الهرب التي نجحت فيما بعد اعتمدت على هذا الشرط.

كانت إحاطة هذه الخطة بالسرية الشاملة ضرورياً لتنفيذها، لهذا قررنا أن نحفظ بهذا السر حتى نضطر إلى طلب المعونة أو المساعدة. ولا شك أننا كنا على حق لهذا التكتّم، إذ أن الحوادث أثبتت فيما بعد أن ما من طائفة من نزلاء المعسكر إلا وقد اندس بين أهلها جاسوس ينقل أخبارها إلى إدارة السجن.

يسور معسكر بوج حائط يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام تعلوه ستة صفوف من الأسلاك الشائكة، ويحيط بهذا كله سياج من الأسلاك ارتفاعه نحو عشرة أقدام، أي أن ما استعمل من الأسلاك في تسويره بلغ أحداً وثلاثين ميلاً. وكان يقف حراس عند كل زاوية حول البناء، كما يقف حراس في كل نقطة يقرب

البناء فيها من السياج الخارجى . وكانت الأسوار فى الليل تنعكس عليها الأنوار الكاشفة ، كما تضىء الطرقات عشرات المصابيح على مسافات متقاربة . وللمعسكر بابان أحدهما صغير مخصص للخروج ويتجمع حوله عادة كثير من الجنود ، والثانى باب واسع لخروج العربات ولا يستعمل إلا لهذا الغرض . أما الزائرون والجنود فيدخلون من الباب الصغير بعد تقديم بطاقة خاصة .

استقر رأى على أن تتخفى فى زى ضابطين ألمانين حتى إذا بدأ الظلام يرخى سدوله نتجه صوب الباب العام ونمرق منه تحت أعين الحراس ، الذين ولا شك لا يجراون على سؤال ضابط عن جواز الخروج . ولتنفيذ هذه الخطة كان علينا أن نعثر على معطفين من معاطف الضباط الألمان فضلا عما قد نحتاج إليه من قبعات وأحذية طويلة وسيوف وشارات مما يجعل التمثيل كاملا . وفى التو أرسل زميلى إلى صانع ملابس فى لندن (وكان هذا مسموحا به) خطابا يخبره فيه بأنه نقل إلى فرقة « الجرينادير » ويطلب منه أن يرسل إليه معطفا من المعاطف المخصصة لهذه الفرقة لأنه يشبه فى زيه ولونه المعطف الألمانى المنشود . أما أنا فطلبت من صديق لى فى هذه الفرقة أن يبعث إلى لندن فى طلب معطف آخر باسمه .

وبينما كنا فى انتظار هذه المعاطف من انجلترا انكبينا على دراسة طريق الهرب بشىء من التفصيل . فكان علينا أن نتجه شمالا إلى الحدود الهولندية ،

ولكن أحداً من نزلاء المعسكر لم يكن يعرف هذه المنطقة معرفة شخصية لنستير بتجاربه . وكنا إذا أطلقت صفارات المعسكر للتجربة في حالة فرار أحد المسجونين (وكان قائد المعسكر مغرباً بها) نلاحظ أن المطاردين من راكبي الدراجات يتجهون غرباً مما يدل على أن الطريق الرئيسى يتجه إلى هذه الناحية ، لهذا رأينا أن نتجه شمالاً صوب بحر البلطيق .

وبعد أيام وصل معطف زميلى ، أما أنا فلم يواتبنى الحظ ، إذ أن صديقى الذى أرسلت باسمه فى طلب المعطف كان فى هذه الأثناء قد نقل من هذا المعسكر ، فلما وصل المعطف أرسل إليه بعنوانه الجديد ، عند ذلك أخذت أتفاوض مع ضابط روسى لبيعى معطفه الذى قصه له خائط ألمانى فبدا إلى حد كبير شبيهاً بالمعطف الألمانية ، وبعد مساومات طويلة دامت عدة أسابيع تمكنت من استخلاص هذا المعطف منه بعد أن نقدته مبلغاً كبيراً من المال ووعدته فى حالة إلقاء القبض على أن أقرر بأننى سرقت المعطف منه خلسة .

كان توفير هذه الملابس وملحقاتها - ليكون التخفى متقناً - يحتاج إلى بعض الوقت فضلاً عن ضرورة التستر عن أعين المتطالعين والجواسيس ، لهذا اتخذنا من غرفة منعزلة لزميل لنا مصنعاً للتجارب ، ولكن ما كدنا ننتهى من مهمتنا حتى فوجئنا ذات يوم بتفتيش الغرفة ، إذ اتهم صاحبها بالرشوة ؛ ولكن الحقيقة أن بعض جواسيس المعسكر وهم من البلجيكي وغيرهم من

اليهود البولنديين تنبهوا الى ما أثار شكوكهم حول ما يجري فى داخل الغرفة وإن كانوا يجهلون حقيقة الأمر ، بيد اننا نجحنا فى تضليل المفتشين وتمكننا من استخلاص المعطفين فألقينا بهما من النافذة الخلفية . وكان لون معطفى أزرق غامقا ، لهذا وضعته فى محلول رطل من مسحوق البوريك وطفقت أمسحه بفرشاة حتى أخذ لونه يضرب إلى البياض فأصبح أقرب شبهها بالمعاطف الألمانية .

قررنا محاولة الفرار فى العاشر من شهر نوفمبر ، وفى هذا اليوم ارتدى كل واحد منا قدراً كافياً من الملابس الداخلية ووزعنا فيما بيننا زادنا من الشوكلاته والبسكويت ومكعبات اللحم المحفوظ واللبن المضغوط كما حملنا موقدا صغيرا لإشعال النار بواسطة الكحول المتجمد ، فبدا الواحد منا يبطنه المتمدد وأكتافه العالية (بفعل هذه المهربات) أقرب شبهها بالبروسيين . وقد طفقت منذ شهور أرعى شاربى وأفتله كما وضعت منظاراً ذا إطار مذهب كبير حول عيني ؛ أما رفيفى الذى كان أشقر الشعر فانه صبغ شاربى وحاجبيه بدهان غامق كما غسل وجهه بمحلول مركز من القهوة المغلية ؛ فكانت هذه المحاولات كافية لتغيير ملامحنا إذا ما خرجنا فى ضوء العشية الباهت .

فلما أمسى المساء ارتدينا الملابس الجديدة وكلفنا ضابطين بريطانيين بمراقبة طريق الخروج ، حتى إذا جاءت عربة المطبخ وفتح الباب الكبير انسلنا منه ؛ ذلك أن كثيرا من الضباط الألمان الغرباء عن هذا المكان يترددون على المعسكر

فى مهام سرىة وىدخلون وىخرجون على هذا النحو حتى لا ىثرون الشكوك حولهم؁ فلما تحركت العربىة كنا على أهبة الاستعداد للخروج؁ ىبدأنا ما كدنا تقف على عتبة الغرفة حتى ألقنا ضابطين ألمانىين ىتحدثان طويلا عن شئون الطعام؁ فاستحالت علينا المجازفة بالخروج؁ وهكذا انتهت هذه المحاولة بالفشل .

انتظرنا أسبوعا قبل أن تتاح لنا فرصة مواتية لتحقيق خطة الهرب . وفى أثناء ذلك أضفنا تحسينات جديدة عليها فحططنا خلسة بعض المصاييح الكهربائية التى تنير الطريق إلى باب الخروج؁ كما اتفقنا مع بعض زملائنا من الضباط البريطانىين على أن يوقدوا نارا فى جانب منزل من المعسكر فى الدقىقة التى نتأهب فيها للهرب حتى إذا اشتعلت شغل الحراس عنا بإطفائها؁ فجمعت لهذا الغرض أكواما من الورق ومن المهملات وبضع زجاجات من سائل « الميثىل » القابل للاشتعال .

وفى يوم ١٨ نوفمبر واتتنا الفرصة؁ فاتفقنا مع بعض الجنود البريطانىين الذين يجمعون المهملات فى عربىة المطبخ على أن تنتهى مهمتهم فى منتصف الساعة السادسة تماما حتى إذا دقت الساعة تحركت العربىة وأسرعنا خلفها . وقبل أن ىحين الوقت المضروب رحنا نستكمل وسائل التخفى؁ فالتهمنا قدرا كافيا من الطعام واحتسبنا شىئا من البراندى .

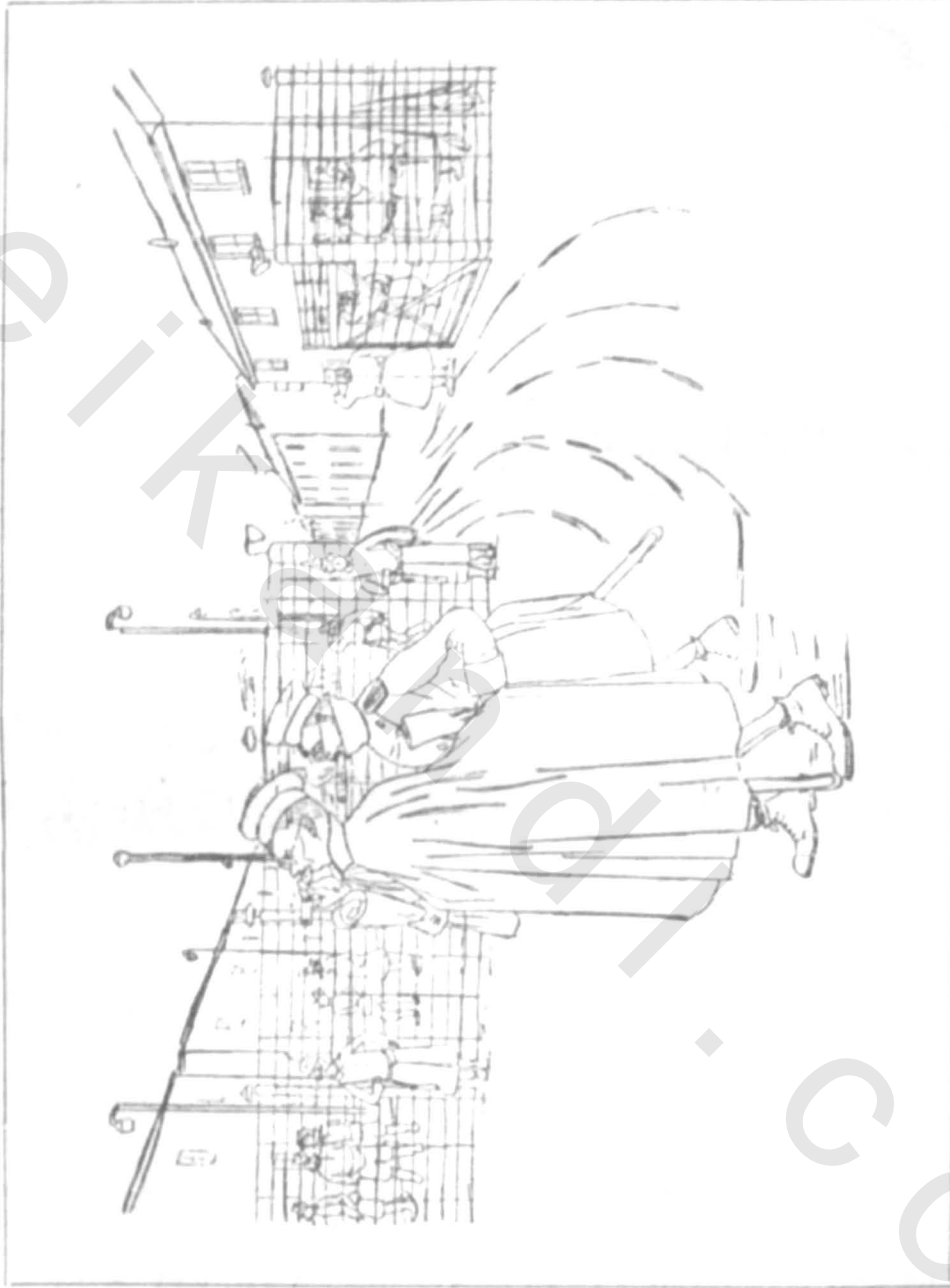
وعندما دقت الساعة الخامسة والنصف تحركت العربّة بالفعل ، فمرقنا من الغرفة وسرنا صوب الباب المفتوح ، وقد صحبنا ضابط بريطاني تخفى فى زى ضابط روسى ، وأخذ يتحدث إلينا بلغة ألمانية ركيكة وبصوت مرتفع ، ومما زاد ثقتنا بأنفسنا أننا مررنا بجمع من الأسرى الفرنسيين والروس فلم يرتابوا فى أمرنا بل رفعوا أيديهم بالتحية كما جرت تعليمات المعسكر إذا مر الأسرى بضابط ألماني ، وفضلا عن ذلك فقد حمل كل واحد منا حزمة من الأوراق وراح يدخن سيجارا ضخما حتى بدا الشبه كبيرا والمنظر عاديا لا غرابة فيه .

وما إن فتح الباب حتى ختمنا المناقشة الوهمية مع الضابط الروسى وسرنا إلى جانب العربّة ، وما إن وقعت عين الحارس علينا حتى انتصب فى مكانه ، كما ألقى رئيسه بقبضة المفاتيح التى كانت فى يده جانبا وبادرنا بالتحية العسكرية . وهكذا جازت الحيلة ! وإن لم تفتنا نظرة الدهشة التى علت وجه الحارس عند رؤيته ضابطين عظيمين يخرجان على هذا النحو من الباب الخفى ، ولكنه لم يجرأ حتى على أن يوجه انتباهنا إلى مخالفة ذلك للتعليمات التى كان عليه تنفيذها !

وبعد قليل وجدنا أنفسنا فى خارج المعسكر فأنحدرنا فى الطريق العام الذى ينتهى إلى المدينة ، وكان علينا أن نقطع بضع مئات من الأمتار حتى نجد مكانا مستورا نختبيء فيه ؛ وفى أثناء ذلك كان رفيق يجر رجله اليسرى جرا ، إذ أن علبة صفيح من علب البسكويت التى كان يخفيها قد انفلتت وسقطت فى سرواله !

عند ما عزمت على الفرار رأيت أن أتردد على طيبب الأسنان في بوج حتى
أتمكن باسم العلاج من أن أدرس طبيعة المكان حول المعسكر ، فوق اختياري
على بقعة منزوية تصلح للاختفاء ، وكان من حسن الحظ أن تعرفنا عليها ، فلم
تمض خمس دقائق من خروجنا من المعسكر حتى التجأنا آمينين إلى ظلال خيمة
من مخائل حديقة كبيرة . فما هي إلا دقائق حتى خلعنا ملابسنا العسكرية وجمعناها
في كيس أودعناه ما حملناه معنا من أنواع الطعام المحفوظ ، ومن ثم خرجنا من الخبأ
نسير الهوينا على عادة العمال العائدين إلى بيوتهم رازحين تحت بعض الأحمال ؛
وقد تنبه رفيقي في تلك اللحظة إلى ما اتباه من شرود الذهن حتى أنه دخن
السيجار الغليظ - الذي وضعه في فمه للتشبه بالألمان - عن آخره وهو الذي لم
يعرف التدخين من قبل !

وعند ما ابتعدنا عن الطريق ألقينا نظرة على المعسكر من بعيد فألفيناه
هادئا لا أثر فيه للحريق الذي أعده رفاقنا بعد خروجنا ، وليس هنالك
ما يدل على أن أحداً قد اكتشف سر اختفاءنا ، ثم إننا انحرفنا شرقا وسرنا على
صفة إحدى القنوات لا لسبب سوى أن هذا الطريق لا يشير الشكوك حولنا
إذا افتضح الأمر ، وبعد أن قطعنا بضعة أميال تمهلنا قليلا ، وفي خلال ذلك
تخلصنا من بعض الملابس العسكرية التي جمعناها في صرة وألقينا بها في القناة
بعد أن أثقلناها بالأحجار ، وهكذا خفت أقدامنا فأسرعنا الخطى ، فلم تقابل في



وهكذا حارت الحياة ...

طريقنا إلا رجلان أو ثلاثة تبادلنا معهم كلمة التحية وهى كل ما نستطيع أن نتلفظ به من اللغة الألمانية بشيء من الثقة ، وكانت الكلاب تنبح كلما اقتربنا من بعض القرى أو من بيوت الفلاحين المنعزلة .

ولما بدأ الفجر يتفتح أخذنا فى البحث عن ملجأ نختبيء فيه النهار بأسره ؛ وكان من حسن الحظ أن اكتشفنا مخزناً ريفياً منعزلاً فارتقينا سقفه وحفرنا فجوة فى أكوام التبن التى تغطيه ودفنا أنفسنا فيها بعد أن أخذنا كفايتنا من الماء فى بعض العلب من الصفيح ، إذ أننا افقدنا « زمزية » الماء أثناء رحلتنا الليلية ، وهى وسادة من المطاط المنفوخ استخدمناها لهذا الغرض .

وفى خلال ساعات النهار لم يزعجنا غريب أو متطفل ، لهذا قضينا اليوم بين النوم والطعام ، فشربنا كوباً من الكاكاو ومن الحساء المحفوظة ، وكان غذاؤنا يتكون من أربع قطع من البسكويت ونحو نصف رطل من الشوكلاته ونصف علبة من اللحم المحفوظ ، إذ أننا قدرنا لرحلتنا إلى شاطئ بحر البلطيق أربع عشرة ليلة .

كان هذا اليوم كغيره من الأيام التى قضيناها فيما بعد ، فكنا إذا تفتح النهار نهرع إلى إحدى هذه الزرائب ، وكانت جميعها عدا اثنتين منها فى أطراف القرى ، وكان بعضها متصلاً ببيوت أصحابها ، وكان العمل فيها

يجرى تحتنا أو فوق رؤوسنا ، وفي إحدى هذه المرات كنا في خطر محقق عندما جاء فلاح يطلب شيئاً من التبن الذي اختبأنا في جوفه وكانت شوكته تعمل على مسافة أشبار منا . لهذا رأينا من الحيلة بعد هذه التجربة أن ندفن أنفسنا إلى عمق لا يقل عن مترين !

وكان من عادة رفيقي أن يقضى النهار بأسره نائماً ، حتى أنه ما كان ليجد وقتاً للطعام ، وكنت على النقيض من ذلك لا أستسلم إلى نوم عميق من شدة البرد والإعياء .

وفي الليلة السادسة أخذ الثلج والصقيع في النزول ، ولم ينقطع نزوله حتى نهاية الرحلة . وكان من عادتنا أن نبدأ السير في العشية في منتصف الساعة السادسة ولا نتوقف حتى يشقشقق الفجر في منتصف الساعة الخامسة من الصباح ، وفي أحد أيام الأحد تأخرنا حتى الساعة الخامسة على اعتبار أنه اليوم من أيام الراحة ، فما كدنا تقترب من أحد هذه المخابئ حتى فاجأنا أحد الفلاحين فألقينا بأنفسنا على الأرض نحو ساعة إلى أن تركنا وانصرف دون أن يرانا .

وكان من عادتنا أن نستريح ساعة في نحو منتصف الليل إذا اجتزنا مكاناً أميناً في الطريق ، ولم يكن البرد قارصاً بحيث يجعل الانتظار أمراً مستحيلاً . وكانت الكلاب خطراً دائماً كلما اقتربنا من قرية أو بعض بيوت الفلاحين .

وحدث ذات مرة أن غامر رفيقي بالنزول إلى داخل الزريبة التي كان فيها مسلحا بعلبة من صفيح ليختلس شيئا من اللبن فلم ينجح في مهمته إذا اكتشف مع الأسف أن ما ظنه بقرة حلوباً كان ثوراً نطاحاً !

وبعد الليلة الأولى اتجهنا شمالاً صوب ميناء «روشتوك» مستعينين بيوصلة كانت معنا ، وقد أجمعنا الرأي على أن نتحاشى المرور في وسط القرى التي كانت متجاورة لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى إلا بمسافة ميلين أو ثلاثة ، فكنا نتبع سكة حديدية ضيقة تدور حول أكثر هذه القرى الصغيرة ؛ فبذلك أضعنا كثيراً من الوقت .

كنا على يقين من أن المطارين على أعقابنا ، لهذا رأينا من الحيطة أن نتحاشى عبور القنطرة المقامة على نهر الهافل ، فاما اقتربنا من مجراه وجدنا أن القنطرة تسبح في النور إذ سلطت عليها أضواء قوية انعكست عليها من مصنع مجاور ، كما اكتشفنا أن حركة المرور عليها لا تنقطع ، لهذا انعطفنا يسرة لنبحث عن قارب نستقله إلى الضفة الأخرى فلم نجد طلبتنا ، وألفينا أنفسنا على أرض كثيرة المستنقعات تقطعها شبكة من القنوات ، لهذا صممنا على أن نعب هذه القنطرة مهما كلفنا الأمر . وفي أثناء ذلك مررنا بحديقة أحد المنازل وقد جمع في طرف منها كومة من الأعشاب الجافة فحزم كل واحد منا حزمة منها ورفعها على عاتقه وسرنا نزرع تحت هذا الحمل الثقيل حتى اجتزنا القنطرة ، فلم يستلفت مرآنا أحد ، بل اننا لم نلمح إلا أقدام السائرين الذين

حجبهم عنا هذا الحمل من الأعشاب ، وما كدنا نصل إلى الضفة الأخرى حتى ألقينا بالحمليين في مكان منزول.

بعد أن عبرنا نهير الهافل أصبحنا أكثر جرأة ، فلم نحجم عن المروق إلى قلب المدن والقرى النائية، ولكننا كنا نسير في لهفة لانتلفت حولنا حتى لا تتوجه إلينا الأنظار ، فكنا إذا أخطأنا الطريق لا تمهل بل نواصل السير قدما ولو أدى ذلك إلى ضياع كثير من الوقت والجهد . وفي ذات مرة وقعت في يدى عباءة صوفية تركها صاحبها في الزريبة التي كنا نختفي فيها ، فلما خرج لبعض شأنه وكانت ساعة العشية لم أتردد في اغتصابها !

وبينما كنا نستعد للخروج من المخبأ في الليلة الأخيرة رأينا على حين غفلة على صفحة الثلج الأبيض الناصع شبحين يتقدمان نحو مكاننا وقد حجبا رأسيهما بلفافة كبيرة ، ولما اقتربا من حيث كنا ، نزعنا اللفافة فبدت لنا فلاتان في مقتبل العمر ؛ وكان رفيقي في تلك اللحظة ينزل من سلم الزريبة الخشبي فأحدث صوتا انزعجت له الفتاتان وكادتتا تكتشفان المخبأ الذي كنا فيه لولا شدة الظلام ، فلما هدا روعهما راحا يملآن الحشوة الكبيرة التي جعلناها غطاء للرأس بسنابل القمح ، ولا شك في أنهما كانا يختلسانه اختلاسا ، وهذا سر اضطرأ بهما.

أخذنا نراقب الفتاتين وهما تبتعدان في الاتجاه الذي كنا قد عزمنا على السير

فيه ، لهذا رأينا من الأصوب أن نسير في اتجاه مضاد خوفاً من أن ينتهى بنا الطريق الأول إلى قرية مأهولة ، وقد كلفنا هذا الحذر الشيء الكثير من الوقت والجهد إذ كان علينا أن نسير فى طريق دائرى . وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل بجغرافية هذه المنطقة (إذ لم نكن نحمل خريطة لها) فإن اعتمادنا كان على المصادفة ، حتى أننا لم نرجع إلى الطريق العام الذى هجرناه إلا ونحن على مسيرة بضعة أميال من هدفنا النهائى .

وفى هذه المرحلة الأخيرة قطعنا ثلاثة وعشرين ميلاً فوق أرض زراعية أوفى طرق مهجورة وتحت أقدامنا طبقة كثيفة من الثلوج ، وكان من نتيجة ذلك أن وصلنا إلى «روشتوك» وقد هدا الإعياء والتعب وهذا خطأ جسيم ؛ إذ كان علينا أن نواجه أخطاراً غير منظورة ومفاجآت تحتاج إلى يقظة ونشاط ؛ وكان الثلج خلال هذه الرحلة لا ينقطع عن النزول حتى امتلأت به الحفر التى تكثرت فى هذه المنطقة فكان خطراً على السائرين ، أما البرد فبلغ أشده ، إذ هبط الترمومتر إلى عشرين درجة تحت الصفر (كما عرفنا ذلك فيما بعد) وقد تجمدت مياه القنوات والبرك والحفر وكان علينا أن نطفىء الظمأ بمص قطع من الثلج ، ومن جرب هذا يعرف أن اللسان يكاد ينفلق من شدة الألم .

* * *

وصلنا إلى ضواحي روستوك فى نحو منتصف الساعة الثانية من الصباح ،

وهناك عقدنا الصحبة مع جاويش ألماني غبي ! ففي طريقنا إلى الميناء برز لنا جندي ألماني من خلف الأشجار وصاح بنا أن نقف . . ولما حاولنا أن نتجاهل أوامره كرر النداء بصوت مدور ، فلم نجد بداً من الوقوف إذ لم تعد لنا قدرة على العدو ثم أخذنا نتمايل ونهتار كما يفعل السكران ، وكنا من قبل قد اتفقنا على تشخيص هذا الدور فأجدناه .

وقف الألماني تحت مصباح الشارع وأمر واحدا منا بالتقدم إليه، فسرت أجرة قدمي وأتمايل يمنة ويسرة ، وأخذ الجندي يوجه إلى سيلا من الأسئلة ، ومع أنني لم أكن أعرف اللغة الألمانية معرفة أكيدة إلا أنني ميزت أكثر هذه الأسئلة : من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ ومن أين قادم ؟ وإلى أين ولماذا ؟ وماجنسيتك ؟ وأين أوراقك ؟ الخ . . .

وكان صوته يزداد ارتفاعا كلما ازداد غضبا لسكوتي ، وفي النهاية لم أربداً من أن أقول شيئا ، وأخذت أتلو كلاما هو خليط من اللغة الألمانية وغيرها من اللغات التي أعرفها ممتزجة بفواق مصطنع ، وفي ثنايا هذه البلبلة حاولت أن يعرف الجندي بأننا بعض ملاحى سفينة دنماركية راسية في الميناء ، وأننا نجهل اللغة الألمانية ، وأننا نسينا أوراق الجنسية في السفينة ، وأننا كنا نقضى سهرة صاخبة مع بعض الأصدقاء عند قناة الميناء (التي مررنا بها فعلا وكانت أصوات السكران تنبعث من وراء جدرانها) وأن الجمعة الألمانية فاخرة ، وما نحن إلا من بعض الملاحين

المساكين ، وإنه ضابط بروسي شهم ، وإن الليلة باردة ، وختمت هذه التهمة بمساء الخير .

ولا شك في أنني نجحت في إقناع الألماني بهذه الشعوذة لأنه كان يردد ويصحح كلماتي حتى إذا انتهت أرسل أصابعه بين طيات ملابسى فلم يجد شيئاً ، ومن ثم دفعنى جانبا ونادى رفيقى الذى كان فى أثناء ذلك يمثل دور السكرير العريد ، فلما اقترت من الحارس بصق ما كان يتلوكة فى فمه من قطع الثلج كما يفعل السكرارى مما أثار غضب الجندى فراح يسمعنا أشنع النعوت والأوصاف ، ولكنه لم يفعل (وهذا مصدر العجب) أكثر من أن يأمرنا بالغروب عن وجهه ، ولعله ظن فى بادئ الأمر أننا بعض الأسارى الهاربين !

وفى أثناء هذا كله ما كان ليخطر لنا ببال أنه سيطلق سراحنا على هذا النحو ، إذ كنا قد بيتنا العزم إذا حدث وحامت حولنا الشبهات على أن نلجأ إلى سلاح واحد هو العدو ! ولو أن صديقنا أجهد نفسه قليلا وتلمس ما كنا نحمله خلف ظهرينا لما خامره شك فى حقيقة أمرنا ؛ وقد علمنا فيما بعد أن هذا الجندى كان يبحث عن روسيين هربا من معسكر « شترالزند » ، كما انه كان عالما بهرب ضابطين بريطانيين من « بورج » وإن مئتى مارك قد منحت لمن يقبض على أحد هذين الضابطين !

وجدنا من الخير بعد هذا الحادث أن نستمر فى تمثيل دور السكرارى كلما أقبل

علينا أحد من الناس : ثم إننا اتجهنا تَوَّأ صوب الميناء فوجدنا طريقاً يحاذي الشاطئ ويسير إلى نهايته . ولم تكن غايتنا في هذه الليلة إلا أن نتفقد السفن الراسية على أن نعود إلى الميناء في الليلة القادمة ونحاول عبور الماء في أحد القوارب المهجورة ، اللهم إذا اكتشفنا إحدى البواخر العامة التي تستخدم في نقل الركاب .



سرنّا في هذا الطريق حتى أتينا إلى نهايته وجدنا عدداً كبيراً من السفن الراسية وأكثرها من السفن المحايدة ، ولعل التعب قد أخذ منا مأخذه لأننا صممنا على أن نلجأ تَوَّأ إلى إحدى هذه السفن ولا ننتظر إلى الغد ، وفي أثناء ذلك كله لم نصادف إلا شرطياً واحداً ، ولكنه لم يلتفت إلينا .

لقد كانت الليلة مناسبة لما أقدمنا عليه ، إذ كانت ليلة مصقوعة شديدة الزمهرير عاصفة الريح وقد كست الثلوج كل شيء ، وفي مثل هذه الليلة لا

تجد حارسا إلا خلف النوافذ والأبواب الموصدة وقد أرسل الموقد ألسنة اللهب . وكانت الميناء باهرة الضوء في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأخذنا نسير كالأطياف على طبقات الشاج لا نحدث صوتا .

ثم إننا اكتشفنا باخرة صغيرة يتصاعد من مدخنها دخان طفيف ، وكانت تحمل اسما « اسكندنافيا » وقد نقش العلم الدنمركى على جانبها ؛ وبعد أن ثبت لنا أن أحدا لا يخفها دلفنا فى حذر إلى السلم ؛ ولكننا ما كدنا نفعل ذلك حتى هجم علينا من الخلف كلب ألماني ضخم من كلاب الشرطة وراح يشب حوالينا وينبح نباحا صارخا .

وفى تلك اللحظة فتح باب مركز الشرطة ووثب على عتبته جندي يحمل صفارة بين شفتيه ، عند ذلك أسرعنا نمثل دور السكارى ، ولكننا وجدنا أنفسنا أمام رجل من طراز آخر غير ذاك الجاويش الأبله ، وفضلا عن ذلك فقد كنا فى شبه زقاق مسدود ، ولم تكن أرجلنا قادرة على حملنا على الهرب ، لهذا كله لم نجد بداً من التسليم ، وهكذا فشلت هذه المحاولة بعد أن بذلنا ما بذلنا من تدبير وجهد فى سبيلها ، وكان النجاح حليفنا حتى الخطوة الأخيرة .

قضينا تلك الليلة فى سجن الشرطة ، وهناك قابلنا ملاحا سويديا محكوما عليه بالإعدام بتهمة الجاسوسية ، فقام بدور الترجمان بيننا وبين رجال الأمن ، فعرفنا منه أنه قد تقرر عودتنا إلى معسكر « بورج » فى صباح الغد حيث تنتظرنا محاكمة عسكرية طويلة ...

فى سبيل الوطن
هرب من الوطن



فيل

أن تنتصف ليلة الأحد ٢٤ مارس سنة ١٩١٢ كان أحد ضباط الشرطة في طريقه إلى بيت من بيوت حامية الزيتون من ضواحي القاهرة .

كان هذا الضابط يحمل إخطاراً من النيابة العمومية يدعو فيه صاحب الدار للمثول أمامها في صباح الغد للتحقيق والاستجواب ؛ ولم يكن الضابط المصرى مقبلاً على أداء واجبه الرسمى بنفس راضية ؛ ولكن هكذا مهمة رجال الأمن لا تسمح لصاحبها بتفكير أو عاطفة ، فهم كرجال الحرب ، الطاعة شعارهم رغبوا في ذلك أم كرهوا .

في ذلك السكون المخيم والظلام الناشر ظلاله فوق ضاحية الحامية النائية في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وجد الضابط الشاب طريقه إلى البيت المنشود ؛ هى دار يعرفها جد المعرفة بل يعرف صاحبها ، فصاحبها علم من أعلام البلاد أصبح اسمه في السنين الأخيرة رمزاً لآمال تبحش في صدور أبناء مصر ، إذا تردد على الأذان ذكر سامعوه الجهاد والجرأة والتضحية .

طرق الضابط الباب ، وكأنما كان صاحب الدار على موعد مع زائره ، إذ كان في تلك الساعة في غرفته مكباً على أوراقه وكتبه يقرأ ويدون ويحرر ، وكان

أهل بيته قد استسلموا للنوم تاركين رب البيت منصرفاً إلى ما هو فيه من عمل لا خاتمة له ولا نهاية ، إنها رسالة العمر لا تنقضي ، إلا إذا انصرم العمر نفسه .

أقبل صاحب الدار على زائره مرحباً ولم يدع له فرصة للاعتذار ، فسرّى ذلك عنه بعد وجوم ، ومسح حمرة الخجل من خديه ؛ ثم قاده إلى غرفته وهناك تسلم إخطار النيابة ، وهو يحاول أن يتكلم همساً حذراً من أن يوقظ زوجته ..
كان صاحب هذه الدار ، الزعيم المجاهد محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى ..

كان فريد بك قد ألقى منذ يومين من ذلك التاريخ خطاباً سياسياً رائعاً فى المؤتمر الوطنى الذى عقد برئاسته ، وفيه ندد بالاحتلال مطالباً بالجلء السريع الناجز لبلاده ، كما ندد بصنائع الاحتلال مطالباً بالدستور ، مؤكداً أن الاضطهاد لا يثنى عزيمته المجاهدين الذين إذا ماسقط منهم واحد بفعل التشريد أو السجن قام من بعده جيل أشد فى الحق مراساً وأصلب فى محاربة الاحتلال عوداً ..

ولم يكن عجباً أن تسمى النيابة إلى زعيم المجاهدين تناقشه الحساب كلما فتح فمًا أراد عميد الإنجليز أن يطبق إلا عن تمجيد جرائم الاحتلال ، كما يفعل المنافقون ؛ إذ أن فريدا كان واثقاً بأن ملاحقته بالسؤال والاستجواب وبالتهديد والوعيد سياسة قد رسمها « قصر الدبارة »^(١) وأسلمها إلى صنائع الاحتلال

(١) كنية عن المندوب السامى البريطانى .

من المستوزرين المصريين لتنفيذها . وليس مما يشين كرامة أمة بأسرها مغلوبه على أمرها أن يجد الغاصب من بين أبناءها حفنة من الرجال قد أعمت المناصب بصيرتهم ، فأصبحوا حربا على الوطن ؛ إذ هذا ما يفعله الاحتلال في كل زمان ومكان ؛ فكان فريد يحارب الاحتلال كذلك في صنائعه من هؤلاء المستوزرين .

ما أن انبلج الصباح حتى كان الزعيم المصرى الكبير فى طريقه إلى دار النيابة العمومية ، إذ أن أخبار هذا الاستجواب كانت قد انتشرت فى طول البلاد وعرضها مع تباشير الفجر ، فلم يكدر يصل فريد إلى « باب الخلق » حتى سبقه جمع من صفوة رجال القانون ومداره المحاماة جاءوا سراعا ليقفوا سداً منيعاً بين زعيم الوطنية وبين نخال الاستعمار الممتدة إليه ؛ وكيف يعيش الاستعمار وهذا الصوت يدوى ويحجل كل جـد الجـد ؛ فترى نبراته بين أرجاء الوادى ، فيميد له كما تميد الجبال الرواسى ! وكيف يعيش الاستعمار وهذا المشعل المتأجج يبعث الحرارة والنور إلى القلوب فيملأها ثقة وإيماناً بحق هذا الوطن المضاع ! فإذا أراد الاستعمار أن يعيش ويفرخ على ضفاف النيل فليس إلا بعد أن يخفت هذا الصوت الداوى وبعد أن تخمد هذه الشعلة المتقدة ؛ ألا بئس من أمل يجيش فى صدورهم ، وخسئت يد تمتد إلى إمام الوطنية بسوء . .

اتهمت حكومة الاحتلال فريدا بالتحريض على كراهية الحكومة وبغضها وازدراءها . إن خطبته منذ ثلاثة أيام حافلة بما يعتبره القانون مثيراً للرأى العام ؛ إنه طالب فيها بجلاء جنوش الاحتلال البغيضة المعتدية ، إنه طالب بالدستور حتى تكون السلطة الحاكمة معبرة عن أمانى الشعب ورغباته ؛ إنه نبه الأذهان إلى أن لا سبيل لدفع العدوان إلا بالجهاد ومجاربة الاحتلال الأجنبي دون نظر لشخص ممثله وسياسته ، وتستوى فى ذلك سياسة الشدة واللين ؛ وإنه أهاب بوطنية المجاهدين من أن يقل عزائمهم الاضطهاد المتواصل ؛ إنه أعلن ألا خلاص ولا مناص إلا بنشر التعليم .. أليس فى هذا كله تحد صريح للاحتلال ورجاله !؟

لم تكن محاكمة فريد إلا ستاراً يخفى سياسة المعتمد البريطانى الذى كان يرمى إلى إقصاء فريد عن زعامة الحركة الوطنية ؛ لقد بيت العزم على التشكيل به بكل سلاح وبكل أسلوب ؛ لقد أغراه صنائعه بالمال والجاه ، فوجدوه أزهد الناس فى المناصب ، وأعف الناس عن تولية وزارة تحت حماية دولة أجنبية معتصة .

لقد كان دفاع الزعيم عن نفسه واضحاً لا لبس فيه ، إنه يمثل الرأى العام وينوره ، فإذا انتقد تصرفات الحكومة فليس ذلك حقداً عليها ، بل هو واجب كل مصرى يمتاز بكرامة وطنه ، وهو حق كل مواطن لا يهدف فى نقده إلا إلى الصالح العام ..

ولكن المقام لم يكن مقام تحقيق وعدالة بل هى رغبة مبيتة وسياسة فرضها الاحتلال فرضا على رجال الحكومة ، فعليهم أن يتلمسوا تنفيذها مستترين خلف القانون ؛ لهذا قررت النيابة العمومية تقديمه إلى محكمة الجنايات ، وحددت لذلك يوم الثلاثاء ٢٧ إبريل سنة ١٩١٢ أى بعد أيام معدودات من سؤال النيابة له ؛ ولم تكن هذه السرعة تقليداً شائعاً فى نظام المحاكم بل كان الدافع إليها الرغبة الملحة فى التخلص من هذا المجاهد ، كأما الحركة الوطنية تموت بإقصائه أو تضعف بالتكيل به .

لم يكن فريد غريباً عن السجن ، بل إن الاضطهاد قد زاده صلابة ومبلاً نفسه حرارة وإيماناً بعدالة القضية التى وكّله الشعب فى الدفاع عنها ؛ إنه لم يتنسم نسيم الحرية إلا منذ سبعة أشهر خلت ، لقد تأر منه الاحتلال فقدّمه إلى المحاكمة إذ ذاك قضت عليه بالسجن ، فاحتمل الأذى صابراً صبر الكرام الأبرار ..

تمت المأساة الأولى فى يوم ٤ يناير سنة ١٩١١ . وكان الزعيم الكبير حتى ذلك التاريخ فى أوروبا يشن حرباً لا هوادة فيها على الدولة المحتلة المغتصبة ، كان يحضر المؤتمرات ويرأس الاجتماعات وينظم جمعيات الطلبة ويرسل الاحتجاجات بهمة لا تعرف كللاً ولا مللاً ؛ بينما كان الزعيم المصرى فى جهادة هذا يُسمع صوت وادى النيل إلى الدول الأوربية علماً تستجيب لنداء الحرية التى كثيراً

ما تمشدقت باسمها ؛ بينما كان الزعيم يضحي بماله وحياته في سبيل مصر ، كانت النيابة العمومية تطلب تقديمه للمحاكمة لمقال وطني نشره فيما كان ينشر من آيات الوطنية .

كان القضاء سلاحا في يد رجال الاحتلال ، ولم يكن يقصد من تلفيق هذه التهمة إلا الإرهاب والتهديد ؛ فلم تكن هذه التهمة مما تُدين مفكرا ، إذ كانت الصحف تنشر في كل يوم أمثال هذه المقالات ، ولكن فريدا كان المقصود بذاته ، فعلى النيابة أن تتلمس من مواد القانون ما يتسع لجر هذا الزعيم إلى ساحة القضاء ، وعلى رأسه قاض انجليزى يعرف واجبه نحو وطنه ولا يقيم للعدالة وزنا ! لقد تيقن زعماء الحركة الوطنية من أن حكومة الاحتلال قد بيتت العزم على تأديب رئيسهم ، لهذا قدمت الوطنى الكبير عبد العزيز جاويش إلى المحاكمة للتهمة نفسها وقضت عليه بالسجن فعلا ؛ فكان هذا الحكم صوت نذير لراعى الحركة الوطنية ، فصيره إلى السجن إذا سولت له نفسه العودة إلى الوطن ، فعليه أن يفاضل بين أمرين أحلاهما مرّ ؛ إما النفي من الوطن أو الزج به في السجن ، وراح أذئاب الاحتلال يشيعون بأن فريدا لن يعود إلى الوطن حرصا منه على سلامته .

وما كادت محاكمة المجاهد عبد العزيز جاويش تنتهى إلى ما انتهت إليه ، حتى أرسلت كريمة الزعيم خطابا إلى أبيها تعلنه فيه بما يشيعه المفرضون من

الطعن في شجاعته واستعداده للتضحية في سبيل وطنه ، إنها تقول فيه « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويز ، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم ، وما تحملتكم الهوان في سبيل وطنكم .. وأختم جوابي بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية ، التي تضحون كل عزيز في سبيل نصرتها أن تعودوا وتحملوا آلام السجن .. »

وهل أروع وأذكى في ميدان الوطنية من أن يدعو ابن أباه إلى التضحية بحريته حتى لا يفل ذلك من عزائم غيره من المجاهدين ! إن الزعيم السياسى كقائد الجيش إذا نكص على عقبيه أشاع الفوضى بين رجاله وانتهى به وبهم الأمر إلى الهزيمة الماحقة الساحقة .

لم يكد ينتهى فريد من أداء رسالته في أوروبا حتى قرر العودة تواء إلى مصر ليقدم نفسه للمحاكمة وهو عارف تمام المعرفة ما سوف تتمخض عنه ، فلما كان يوم ١ يناير سنة ١٩١١ كان فريد ماثلاً أمام النائب العمومى الذى لم ينتظر طويلاً حتى قرر تقديم زعيمه الوطنى إلى محكمة الجنايات .

كانت محاكمة فريد مسرحية هزلية مثلها رجال الاحتلال وأذئابهم ، كانت محكمة مصرية على رأسها انجليزى استعمارى هو المستر « دلبروجلى » ، وكانت جريمة المتهم إنه كان يعمل على إثارة الشعور الوطنى ، وهذه تهمة تكفى لأن يقدم صاحبها إلى محكمة الجنايات .

مثل الزعيم الوطنى أمام هذه المحكمة ، وأراد أن يثبت للقاضى الإنجليزى أن الدعوة إلى إثارة الشعور القومى ليست تهمة يحاكم عليها المصرى أمام محاكم بلاده ولو كانت دور القضاء لعبة فى يد المستعمر ، فامتنع من أن يسمح لأحد المحامين بالدفاع عنه ؛ إذ كيف لرجل نصب نفسه محاميا عن شعب معتدى عليه أن ينتدب من يدافع عن نفسه ؟

خلت المحكمة للمداولة ؛ وولم يكن هنالك ما تجوز حوله المداولة لأن التهمة ملفقة والغاية واضحة والنتيجة محتومة .. وما هى إلا بضع دقائق حتى عاد القاضى الإنجليزى إلى منصبه ليعان الحكم على الزعيم المصرى بالسجن ستة أشهر .. وهكذا عاد الوطنى الكبير من أوروبا لا يلبس أكاليل النغار اعترافا بفضله وجهاده فى سبيل قضية الوطن ، بل عاد ليقف موقف الاتهام شأنه شأن غيره من الخارجين على القانون ؛ نعم لقد روعت البلاد لهذا الحكم الجائر ، ولكن حنق الشعب على أذنان الاحتلال كان حينئذ أشد وأعظم ، مهما ألبسوا فعلتهم لباس العدالة والقانون لأنه ثوب زائف مهلهل ..

وهكذا اقتيد فريد العظيم إلى سجن الاستئناف بباب الخلق ، فشهد هذا السجن للمرة الأولى قطبا من أقطاب الحركة الوطنية يزعج به الاحتلال إلى ما وراء قضبانه ؛ وهكذا توج فريد بأكليل جديد من النغار حمله فخورا به مزهوا بين جدران السجن ، فلم يشك يوما ولم يتبرم ..

جاء ضنائع الاحتلال إلى سجنه يساومونه في أن يغير من خطته في سبيل العفو عنه وإطلاق سراحه ، جاء إليه « كولس باشا » الإنجليزى مدير السجون المصرية ، فلم يجد من الزعيم المجاهد إلا إعراضاً ورفضاً ، فلا هو يرضى أن يتنحى عن أداء رسالته ولا هو يرضى حتى عن التخفيف من حدة لهجته ، فعاد الإنجليزى يعلن فشله في مهمته ؛ ثم أرسلوا إليه مصرياً كبيراً ليقوم بدور الوساطة ، فلم يسمع من الزعيم السجين إلا لوماً على مسعاه ، فهو لا يطلب عفواً من أحد ولا يسمح لأهله ولا لأنصاره بأن يتقدموا بطلب العفو ، فأى جهاد سلم صاحبه من العناء وبذل التضحية ؟

وبين أركان هذا السجن عكف الزعيم على الدراسة ، فتعلم اللغة الألمانية لكي تكون له عوناً في جهاده في أوروبا ، كما عكف على الاطلاع فكان الكتاب رفيقه في وحدته ، فمرت الشهور الستة دون ضجر أو ملل .

وعند ما حل يوم الإفراج عنه استعدت البلاد لاستقبال زعيمها السجين ؛ خفت منذ الفجر الأول إلى ميدان « باب الخلق » ووقفت تنتظر على أبواب سجن الاستئناف حتى اتصف النهار ومالت الشمس للمغيب وأقبل الليل ، ومرت ساعاته ، حتى أقفرت الشوارع من السائرين وأغلقت المقاهى والدكاكين أبوابها ظناً بأن الزعيم لن يخرج في ليلته ؛ ولكن جمعا حافلا من الشباب لم تفت في عضده قسوة الانتظار فلم يبرحوا مكانهم حتى بدأ فجر اليوم الجديد يشقشق

من الشرق ، فإذا بعربتين تنطلقان من باب السجن هذه إلى الشمال وهذه إلى الجنوب ، لا يدري أحد من فيها ، وذلك إمعانا في تضليل الجماهير المترقبة، ولكن سرعان ما عرفت العربية التي تقل فريد ..

انطلقت الجماهير راكضة خلف عربية الزعيم السجين ، وشهدت العاصمة في ذلك الصباح الباكر منظرا من أعجب ما شهدته ، فبينما كانت المدينة العظيمة مستغرقة في نومها كان عشرات من شبابها يسابقون عربية تحمل عميد نهضتها القومية وقائد حركتها الوطنية وزعيم مجاهديها وأبرأبنائها بها . وكانت العربية كلما سارت شوطا ينضم إلى الجموع التي تحف بها عشرات من السائرين ، حتى إذا وصلت إلى باب الحديد كانت الجماهير قد تكاثرت حول عربته وبدأت كالموجة الجارفة تحمل على متنها قارب النجاة ؛ حتى انتهى المطاف إلى دار الزعامة وهناك بلغت الجموع مبلغا عظيما .

كان ذلك منذ سبعة أشهر ..

وها هو ذا الزعيم الكبير في طريقة إلى النيابة العمومية مرة أخرى، وهذه أوراق التحقيق تسود صحائفها بالزور والبهتان ، وها هم صنائع الاحتلال ينصبون شباكهم من جديد حول الزعيم ، وها هو ذا المحقق المصرى يأبى ضميره أن يسترسل في تحقيق يعرف الدافع إليه والغاية منه والرغبة فيه ، فيطلب أن يتنحى

عن القيام به ، ومع ذلك يستمر التحقيق ويستمر التفتيش ويتكاثر عدد المتهمين من رجال الحركة الوطنية ..

لقد بدت سياسة الاحتلال سافرة لا تدع مجالا للشك في نواياها ، لقد ساء رجال العهد أن يقف على رأس الحركة الوطنية زعيم لا يفت في عضده سجن أو تشريد أو تنكيل ، فصممت على أن تعود به إلى السجن كلما خرج منه ، فبذلك يصفوها الجو ولو حيناً من الزمن ، مع ما في هذا الاضطهاد المتواصل من إذلال لزعيم الحركة الوطنية وإنذار للملتفين حوله من المجاهدين ، فبذلك تهن عزائهم وتعصف ريح الاضطهاد بشملهم .

وها هي ذي محكمة الجنايات تلتئم برئاسة القاضى الإنجليزى المستر « دلبروجلى » الذى أرسل فريدا إلى السجن منذ شهور معدودات ؛ وهى ذي النيابة العمومية التى تمثل سياسة الاستعمار تعدد التهم التى تفيض غلاً وحققاً على الحركة الوطنية التى يمثلها الزعيم ...

لم يعد هنالك أمل فى عدالة ، وماذا تجدى براعة الدفاع إذا كانت نية الحكومة قد انصرفت إلى إرسال الزعيم الى السجن كلما خرج منه ، فهذه التهم وهذا الجدل حول تفسير الألفاظ ما هو إلا ستار زائف لإيهام الشعب بأن ساحة القضاء ما زالت حى للعدالة .

لقد هال رجال الحركة الوطنية أن تنتهى حياة زعيمهم إلى هذا المصير العسير ،

فأجمعوا الرأي على أن يهاجر فريد إلى خارج هذه البلاد حتى يقود سفينة الحركة الوطنية وهو حر طليق ، فضلا عن أن محاربة الاستعمار الإنجليزي ليس مجالها مصرأ حيث الخصم يتربع على كرسى الحكم ، بل إن صوت وادى النيل لا بد له أن يرتفع فوق منابر أوربا حتى يرن فى أذان شعوب تلك البلاد وحكوماتها ، فلفل ذلك يوقظ فى نفوسها روجا كريمة تناصر الحق وتؤازر حركة التحرير المصرية ..

لقد اتفق الرأي على أن يهاجر فريد من مصر إلى هذا العالم الفسيح قبل أن تصدر المحكمة حكمها الجائر المنتظر ..

وفى يوم الاثنين ٢٥ مارس ، وقبل يومين من الموعد المحدد لصدور الحكم استقر العزم على هجرة الزعيم سرا ..

فى منتصف الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ وعلى رصيف محطة العاصمة ، اجتمع بعض صفوة رجال الحركة الوطنية والمحاماة فى مصر لتوديع الزعيم محمد فريد المسافر إلى الاسكندرية للمرافعة فى قضية مرفوعة أمام المحكمة المختلطة فى تلك المدينة .

وكان فى صحبة الزعيم الكبير اسمعيل بك لبيب أحد رجال الحركة الوطنية ، فلما بدأ قطار الساعة السابعة يتحرك تنقل فريد ببصره بين مودعيه الذين تمنوا له

رحلة طيبة إلى أن يعود إليهم في الغد ؛ ولكن قلب فريد في تلك اللحظة كان ميدانا للعواطف العاصفة ، لأنه يعلم أن الغد المرجو سوف يطول موعده وان هذه الوجوه التي تودعه وهي مستبشرة بقرب عودته تعيش على أمل قد لا يتحقق أبدا ..

لقد كان هذا الصراع الهائل ناشبا في قلب فريد منذ الأمس حين عقد العزم على الهجرة من الوطن ، إذ لما عاد إلى بيته في المساء كانت زوجته وأهله في جهل مما صحت عليه عزيمته ، بل إن زوجته ما كانت لتعرف من أمر تلك المحاكمة شيئا ، فلما قر قراره على الهجرة في صباح الغد لم يجد محيضا من أن يفضى بهذا السر إلى شريكة حياته ، لأنها أقرب الناس إليه وأعرفهم بسريره وأكثرهم تقديرا لرسالة الوطنية الكبرى ، التي كان يضحى في سبيلها كل يوم بقربان جديد ..

لقد كانت شريكة فريد كفريد نفسه إيمانا ، فلم تجزع ولم تغلب عواطفها على وطنيتها ، وهي تعرف أن الهجرة قد تطول وقد يمتد أجلها ، فيعيش أبنائها كاليتامى بعيدا عن أبيهم ، بل إنها تعرف أن المحتل سوف يسدد سهام غضبه وانتقامه إلى صدرها وأبنائها بعد أن فلت من أيديهم الصيد نفسه ، وإنها لتعرف أن فريدا سوف لا يصمت له لسان في أوروبا مدافعا ومنندا بالاحتلال ورجاله ، فيرد رجال الاحتلال على ذلك بالتنكيل بأهله وأبنائه ..

كان كل ما طلبه فريد من زوجته أن تحتفظ بهذا السر حتى يغادر أرض الوطن ، فأوصاها بأن تقصى عنهم صحف الصباح حتى لا يطلعون على

أخبار محاكمته لأنهم يعرفون أن المحاكمة معناها الطريق إلى السجن ؛ وهكذا برت هذه السيدة الكريمة بوعدھا ، فلم تدع أبناءھا يشعرون في الصباح بأنهم يودعون أبائهم وهو على أهبة سفر سوف يطول ويمتد إلى ما شاء الله .

وصل فريد إلى الاسكندرية وهو يحمل هذا السر الذي لا يشاطره معه إلا زميله في الجهاد إسماعيل بك ليب ؛ وكان هادئ النفس تشع في وجهه ابتسامة الرضا بما قدر الله له . وهناك قصد الفندق الذي اعتاد التخلف إليه وتناول فيه طعام الغداء حتى لا يثير حول قدومه إلى الاسكندرية الشكوك والريب ، وعيون رجال الاحتلال مفتوحة تتبعه حيثما سار .

كانت السفينة الروسية « الملكة أولجا » تبحر بعد ظهر ذلك اليوم نفسه إلى اسطنبول ؛ فقرر السفر على هذه السفينة دون انتظار أو إهمال ؛ وكان التدبير أن يشتري ليب بك تذكرة على هذه السفينة وأن يصحبه فريد على أنه أحد المودعين ، ثم يتخاف على ظهر السفينة حتى تخرج من الميناء ، وهكذا كان .

ركب فريد السفينة في صحبة زميله مودعا دون تذكرة ، حتى لا يتنبه رجال الأمن إلى ما صحت عليه عزيمته ، وهناك احتجب في غرفة ليب بك حتى انتهت إجراءات الحجر الصحي وأطلقت الباخرة صفارتها إيذانا بالرحيل ،

وهكذا فعل الوطنى الكبير ما يفعله الشريد الطريد الهارب من وجه العدالة ،
ورضى لنفسه أن يهجر الوطن والأهل خفية ، هذا الوطن الذى أصبح
مأوى حثالات الشعوب ، فضاق بأبر أبنائه ، وامتنع عن خير ولدانه ..
فلما أن استقبلت السفينة عرض البحر ، خرج فريد من مخبأه إلى ظهرها
وراح يصعد النظر إلى شاطئ الاسكندرية التى بدت معالمها تتضاءل شيئا
فشيئا كلما أوغلت السفينة فى الماء ؛ أى عواطف كانت تضطرم فى نفس
الوطنى المجاهد وهو ينظر إلى وطنه يختنى وراء الأفق ؟ لقد تركه
هاربا متخفيا ؛ لقد ترك أرض آبائه فلم يودعه مودع ، وهو الحبيب إلى قلب
كل مصرى ؛ ولم يهتف باسمه لسان وشخصه ملء القاب والفؤاد ، ولم
تدمع لهجرتة عين ورسمه زينة العيون والأبصار ؛ لقد كان كريما حتى فى
محنته فلم يمن على أحد بتضحية ، فخرج فى غفلة من العيون ، كما تنطلق
النسمة الحبيسة إلى الفضاء الفسيح .

يا للمجاهد الشريد الذى نزع من وطنه ليطاول أكبر أمبراطورية عرفها
التاريخ ينازلها بلا سلاح سوى إيمانه بحق أمته ، وبعزيمة لا تقبلها الشدائد
ولا توهنها النوازل ؛ لقد جعل من أوربا جميعها منبرا يرفع منه صوت مصر
عاليا مدويا .

لقد كان الاحتلال يلاحقه أينما سار ونزل ؛ كان ينازله سافرا كما كان يحاربه من وراء ستار ؛ فلما وصل إلى بلاد اليونان امتنع في اللحظة الأخيرة عن النزول إلى الأرض ، إذ علم أن حكومة تلك البلاد قد نوت أن تسلمه إلى أعدائه ، ومثلها في ذلك مثل كثير من الحكومات الأوربية ، التي وإن كانت حرة ، إلا أنها تعيش على فتات الدول الاستعمارية الكبرى .

بل ان اسطنبول نفسها مركز الخلافة الإسلامية ما كانت خفية بالزعيم المصرى الكريم كما كان يؤمل ويرجو ؛ لأن أذنان الإنجليز كانوا يعملون فى كل مكان لحساب الاستعمار . فما كاد يستقر به المقام ، حتى بدأت المخبرات السرية بين حكومة الاستعمار فى مصر وبعض أذنانهم من الأتراك تحثهم على القبض على الزعيم المصرى وإعادته إلى محبسه . فلما بلغت الشائعات فريدا وأنصاره فى العاصمة التركية حزم رأيه على الهجرة من دار الخلافة ، والسفر إلى سويسرا ؛ وقد صح ظنه لأنه لم تنقضى أيام معدودات على انطلاق فريد من اسطنبول ، حتى صدر الأمر بإلقاء القبض عليه وإعادته إلى مصر حيث حكم عليه بالسجن سنة مع الشغل .

لم تكن هذه الملاحقة بالتي تشغل بال الزعيم الشريد عن الرسالة الكبرى التى كرس حياته من أجلها ، فلم يعقد مؤتمر أو يلتئم شمل

عصبة دولية حتى كان فريد أحد المنضمين إلى لوائها أو الساعين إليها ما دامت تتيح له الفرصة للدعوة للقضية المصرية ؛ فلم يكد مؤتمر السلام العالمى انعقد فى مدينة جنيف حتى أخذ للأمر أهفته فجمع وفداً من الوطنيين المصريين والطلبة الذين كانوا يدرسون فى أوروبا ، وقاد حملة شعواء ضد الاستعمار البريطانى حتى كان له ما أراد ، فهزم دعاة الاستعمار من الإنجليز أنفسهم وأنصارهم من الأمريكين ، حين قرر هذا المؤتمر العالمى مطالبة إنجلترا بالجلء الناجز عن وادى النيل ؛ نعم لقد كان ذلك انتصاراً أدبيا لمصر على كل حال .

كانت حياة فريد فى منفاه حياة جهاد متواصل وحرب لا يئخذ لها أوار ؛ كان ينازل خصومه فى كل جبهة ، وفى كل ميدان ، وبكل سلاح . وما كان ليقعده عن أداء رسالته تضحية من مال أو عافية ؛ فما أن انتهى من أعمال مؤتمر السلام فى سويسرا ، حتى نرح إلى السويد ، ومن ثم انطلق إلى بلجيكا ، ومن بلجيكا إلى هولاندا ليحضر مؤتمر لاهاي ، ومن هولندا إلى باريس لينظم صفوف جمعيات الطلبة المصريين فيها ، ومن باريس إلى جنيف . وإذا به ينرح إلى إنجلترا نفسها عدوته اللدود لينازل خصمه على أرضه حين عقد فى لندن مؤتمر الأجناس المضطهدة ، فى عاصمة الأمبراطورية التى أذلت واضطهدت جميع الأجناس والشعوب فى أوطانها .

كانت شهرة الزعيم المصرى العظيم قد تناقلتها الألسن والمحافل والصحف

في أوربا جمعاء ، فما ان هبط العاصمة البريطانية حتى التف حوله جماعات الطلبة المصريين والشرقيين وغيرهم من المشتغلين بحركات التحرير ، وما ان افتتح المؤتمر حتى دعا فريداً رئيس المؤتمر إلى مجلس الصدارة فيه ، لأنه - كما قال عنه - أجد الرجال الذين يؤمنون بالتضحية في سبيل مبادئهم ، وأحد الذين أوذوا وعذبوا في سبيل بلادهم ! وما أصدق الشاء إذا كان من الخصم ... !

وهكذا كانت حياة الزعيم العظيم حياة لم يطعم فيها ساعة راحة أو استراحة مع ملاحقة الاستعمار له بالتهديد والوعيد ، فإذا أبدى استكباراً راحوا يمنونه الأمانى ويعرضون عليه الوزارة ، وهو الشريد الطريد الذى ينتظره السجن إذا عاد إلى وطنه ..

قامت الحرب الكبرى الأولى ، فلم تفته فرصتها ، بل عمد إلى تجنيد كل القوى المصرية من الشباب المتعلم في أوربا ، ومن الوطنيين المهاجرين من مصر داعياً إلى تأسيس الجمعيات فى شتى البلاد الأوربية لبثّ الدعاية للقضية المصرية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها كانت الأذهان مهيأة والقلوب مفتوحة للانتصار لهذه القضية ؛ فأنشئت الجمعيات المصرية فى لندن وباريس وجنيف وبروكسل ونيوشاتل وليون ولاهاى وبرلين وبيج ومونبلييه واسطنبول .

وهكذا كانت هذه الجمعيات كدور السفارات تردد صدى المطالب المصرية فى كل مكان ، حتى إذا أعلنت الهدنة والتأم عقد مؤتمر الصلح فى باريس ، وسافر الوفد المصرى إلى أوربا كان لدعوته صدى فى النفوس لأن فريدا وفريدا وحده قد بذر البذر الصالح خلال تلك الأعوام التى قضاها منفيا عن أهله ووطنه .

وبينما كانت أعلام ثورة عام ١٩١٩ ترتفع فوق أرض الوطن ، تلك الأعلام التى نسجتها أصابع فريد وأدخرها إلى حين ، كان بطل الميدان نفسه فى صراع مع الداء والمرض ، فإن ذلك الجسم الذى كان كالطود قوة ومناعة بدأت تحترمه الأمراض وتهاجمه الأسقام ، لقد عاش فريد خلال هذه السنين الطويلة بعيداً عن الوطن وبعيداً عن الأهل والولد ، بعيداً عن معنى بأمره أو يدبر شئونه وهو فى خلال ذلك لم يرع ما لجسمه عليه من حق ، فكانت أيامه وكانت لياليه سلسلة من الجهاد المتواصل ، فكان ينفر إلى كل بلد وإلى كل ناد من السويد إلى اسطنبول كلما تهيأت الفرصة ليرفع راية الجهاد تحت تلك السماء المكفهرة العاصفة الماطرة بضبابها وثلوجها ، وهو ابن النيل الذى لم يألَف إلا صفاء السماء والحرارة والدفء .

وهكذا ترك المجاهد نفسه فريسة للمرض الذى كان يلاحقه إلى حيثما

سار وحل ، حتى إذا أحس بأن الداء أصبحت له الغلبة استجاب لحكم أصدقائه ، وما كان أقلهم ، فقَبِل أن يسافر إلى براين طلباً للشفاء والدواء ؛ ولكن المرض كان قد استحکم فلم يعد لمبضع الجراح مكان أو مجال .

وفي يوم ماطر عاصف ، وكان النصف من شهر نوفمبر عام ١٩١٩ أخذ المجاهد الكريم ينازل آخر معركة في حياته المليئة بالمعارك ضد العدوان والاستبداد ، ولكن هذه كانت معركة الحياة والموت ، فما أحس بأن لا مرد لحكم الله وإن منيته قد حانت ، تلفت إلى من حوله وجميعهم غرباء عن الوطن مثله وقال : « إني أنا وأولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر ، فإذا مت فضعوني في صندوق ، واحفظوني في مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتي إلى وطنى العزيز ، الذى فارقت وكنت أود أن أراه ! »

وفي غد ذلك اليوم شهدت شوارع العاصمة الألمانية جنازة حزينة سارت تحت طوفان من المطر تحف بها جموع من شتى الشعوب الشرقية تشيع بطلا من أبطال الحرية إلى مقبرة المسلمين ببرلين ، وهناك وضع تابوت الفقيد العظيم فى أمانة حارس كنيسة إلى جوار تلك المقبرة ، فكان فريد حتى بعد وفاته رمزاً للأخاء والتسامح الدينى ..

مرّ عام أو كاد وزعيم مصر الأكبر ، وداعية استقلال وادى النيل ،
والمجاهد الذى علّم الناس أن الجهاد تضحية لا شقشقة لسان ولا شهوة حكم ،
مر عام أو كاد وفريد العظيم رهين حارس الكنيسة الألمانية
ولكن وطنه لم يكن عاقا ناكرا للفضل ، فقد أهابت هذه الخاتمة الحزينة
رجلا فاضلا من أبناء الزقازيق^(١) لا تجمع به بالفقيد الكريم إلا صلة الرحم فى
الوطن ، فتطوّع لأن يكون رفيق زعيم المجاهدين فى عودته إلى مصر ، فسافر
إلى برلين وأنفق من وقته وجهده وماله حتى تيسرت له الأسباب ، فعاد إلى مصر
بخير الأبناء والأحباب ..

وفى فجر يوم الثلاثاء ٨ يونيه سنة ١٩٢٠ ، كانت الباخرة « حلوان » تقترب
من شاطئ الإسكندرية ، وما أن تفتتح الصباح حتى كان أهل الثغر فى
طريقهم إلى الميناء لاستقبال ابن مصر البار ، الذى يعود من منفاه إلى
الوطن حبيس صندوق من حديد ، هو رمز رسالته التى جاهد من أجلها ،
ومات شهيدا فى سبيلها ، رسالة تحرير شعب من احتلال أقسى صلابة من
الحديد ..

وهكذا عاد فريد رمز التضحية والجهاد إلى وطنه ، فبكته مصر بكاء
الثاكلة الوهى ؛ ولكن عودته الحزينة ألهبت نفوس الشباب ، وأذكت

(١) هو المرحوم الحاج خليل عفيفى .

فى قلوبهم روح الجهاد والتضحية والثورة .

مصر تبكى عليك فى كل خدير وتصوغُ الرثاء فى كل نادٍ
مُنتهى ما بهِ البلادُ تُمزى رجلٌ مات فى سبيلِ البلادِ
أمهاتٌ لا تحملُ الشكلَ إلا للنجيبِ الجرىءِ فى الآحادِ
« كفريد » وأين ثانى فريد أى ثانٍ لواحدِ الآحادِ؟*

* من قصيدة شوقى فى رثاء فريد .